الفصل العشرون

الأخلاق والعادات

استلزمت العادةُ فى بيوت السادة والكبراء عند الدول الشرقية القديمة وفى الدولة الرومانية البوزنطية أن تُهيّا هذه البيوت بالخصيان[(١)] ؛ وقد حرّم الإسلامُ ذلك ؛ وشدّد القرآن وشدّدت السنة فى تحريم خصاء الإنسان أو البهائم ، ووُكِل لوالى الحِسْبة أن يمنع ذلك ، ويؤدِّب عليه[(٢)] ، وهنا أيضاً — كما فى نواحٍ أخرى — دخل على الإسلام حوالى عام ٢٠٠ هـ — ٨١٥ م ، بسبب تقلّص ظل الروح العربية ، عاداتٌ شرقية قديمة ، رغم ما جاء به النبى عليه السلام فى شأنها من الإنكار والمنع الصريح . وذلك أن الخليفة الأمين ، وهو ابن هارون الرشيد ، لما ملك ، بلغ من كَلَفِه بالخصيان أنه « طلبهم ، وابتاعهم ، وغالى بهم ، وصيّرهم لخلوته فى ليله ونهاره وقوام طعامه وشرابه وأمره ونهيه ، وفرض لهم فرضاً سماهم الجرادية ، وفرضاً من الحبشان سماهم الغرابية ، ورفض النساء الحرائر والإماء حتى رُمى بهن »[(٣)] وحتى قال أبو نواس ساخراً[(٤)] :

احمــدوا الله جميعاً يا جميع المسلمينا
ثم قولوا لا تملُّوا ربنا أبقِ الأمينا

---

(١) وأصل ذلك دينى ، وقد أوجد هنا « الجنس الثالث » قديما إرضاء للآلهة ، وقد أنكر محمد عليه الســلام هذه القيمة الدينية التى ادعيت له كما أنكرها الفصل الأول من قرارات مؤتمر نيقية . انظر مقالة سخاو : Sachau, MSOS, 2, s. 83 f. .

(٢) الأحكام السلطانية للماوردى ص ٤٣١ من طبعة إنجر (Enger) .

(٣) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٩٥٠ . (٤) نفس المصدر ص ٩٦٥ .

صيَّر الخصيان حتى صيَّر التعنين دينا
فاقتدى الناس جميعاً بأمير المؤمنينا

وقد احتال المسلمون للإفلات من حرمة منع الخصاء بأن كانوا يشترون الخصيان ، تاركين لليهود[١] والنصارى إتمام هذا العمل الشنيع ، وقد جاء فى خبر يرجع إلى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) ، أن مدينة هَدْيَة بالحبشة النصرانية هى التى كان يُداوى بها الخصيان دون غيرها من بلاد الحبشة[٢] على أنه فى أوائل القرن التاسع عشر كان « فى الصعيد بمصر ديران قبطيان دخْلُهما الأساسى مصدره الخصاء ، وكان هذا يُعمل بنسبة كبيرة » حتى كان يكفى لتموين مصر كلها وجزء من تركيا بالخصيان »[٣] . « وكان بعض القبط بمدينة أسيوط يتّجرون بشراء صغار العبيد السود وخصائهم ، وكان كثير منهم يموت من هذا العمل ، أما الباقون فكانوا يُباعون بما يبلغ العشرين ضعفاً من ثمن شرائهم »[٤] .

ويقسم المسعودى الخدم إلى أربعة أنواع : السودان ، والصقالبة ، والروم ، والصين[٥] . ويذكر المقدسى[٦] ، أن الخدم البيض صنفان : (١) الصقالبة ، وبلدهم خلف خوارزم ، إلا أنهم يحملون إلى الأندلس فيُخْصون ثم يخرجون إلى مصر[٧] . (٢) الروم ، وهم يقعون إلى الشام وأقور ، وقد انقطعوا بخراب

---

(١) على أنه من الغريب فى هذا الباب أن اليهود كانت شريعتهم تحرم عليهم خصاء الخيل والثيران ، حتى كانوا يضطرون إلى ابتياع الثيران المخصية من النصارى . انظر : Krauss : Talmudische Archaologie, II, s. 116.

(٢) ابن فضل الله العمرى ، كما حكى ذلك ماركفارت Marquart, Die Reninsam- Pückler, Aus Mehemed Alis Reith, III, s. 159. (٣) milung. s, CCCVI, Maltzan, Meine Wallfahrt nach Mekka, 1865, 1, 48. (٤)

(٥) مروج الذهب ج ٨ ص ١٤٨ . (٦) المقدسى ص ٢٤٢ .

(٧) ويحكى ابن حوقل أيضا (ص ٧٥) أن جميع ما يُجلب إلى خراسان من الصقالبة فهو يبقى على حاله من غير خصاء . وكان يجلب من الأندلس إلى جانب الغلمان والجوارى =

الثغور . « وسألت جماعة منهم كيف يخصون ، فتحصّل لى أن الروم يسلّون أولادهم ويحرزونهم على الكنائس ، لئلا يشغلوا بالنساء ، وتؤذيهم الشهوة » وكان المسلمون إذا غزوا أغاروا على كنائسهم وأخرجوا الصبيان منها (١) .

أما الخدم الصقالبة فكانوا يُجلبون إلى مدينة خلف بجّانه (هى تشينا Pechina) العاصمة القديمة لإقليم البيرة Almeria) أهلها يهود ، وكانوا يقومون بخصائهم (٢) . وقد اختلف فى الخصاء نفسه ، فقال البعض يمسح القضيبُ والمزودان فى مرة واحدة ، وقال بعضهم . يُشَقّ المزودان وتخرج البيضتان ، ثم تُجعل تحت القضيب خشبةٌ ، ويُقَطّ من أصله . وسألتُ عُريبا الخادم ، وكان من أهل العلم والصدق ، فقلت : أيها المعلم ؟ أخبرنى عن أمر الخدم فإن العلماء قد اختلفوا فيهم ، وأبو حنيفة يجعل لهم فراشاً ، ويُلْحق بهم ما تلد نساؤهم (٣) ، وهذا علم لا يُستفاد إلا منكم ، قال : صدق أبو حنيفة رحمه الله ، وسأخبرك بحالهم : اعلم أنهم إذا

= الذين يسبون من إفرنجة وجليقية الصقالبة، الخصيان أيضا . ويقول الجاحظ (الحيوان ج ١ ص ٥١) إن الخصى يعرض له عنـد قطع ذلك العضو تغيّر الصوت حتى لا يخفى على من سمعه أنه خصى .

(١) لم يكن الخصيان فى الكنيسة الأورثوذوكسية يقومون بمهمة الغناء فقط ، بل كانوا يستطيعون أن يصيروا قساوسة ، خلافا لما كان عليه الحال فى الكنيسة اللاتينية . وفى أوائل القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى تولى بطريركان خصيان منصبَ بطريرك على القسطنطينية ذاتها ، أحدهما بعد الآخر (انظر تاريخ يحيى بن سعيد مخطوط باريس رقم ٢٩١ ص ٨٢ أ) . وكذلك حوالى عام ٣٧٠ هـ — ٩٨٠ م (انظر Barhebraeus Chron. ecclesiast., I, 414) وعام ٤١٠ هـ — ١٠١٩ م (يحيى بن سعيد ص ١٣١ أ) .

(٢) وكذلك كان يهود فرنسا يمارسون الخصاء ، وكان يهود فردان بنوع خاص مشهورين بذلك . انظر تاريخ البربر فى اسبانيا لدوزى : Dozy, Gesch. der Mauren in Spanien, II, 38.

(٣) ذكر ابن الأثير خادما يسمى صندلا ، وقال إن له زوجة — ج ٨ ص ١٩١ . ويقال إن مسائل غرامية بين جوارى خماروه وبين الخصيان كانت سببا فى قتل هذا الأمير ؛ وكان لعضد الدولة خادم يسمى شكراً تزوج جارية حبشية ، ولكن قلبها علق بغيره فأخبرت خصومه بمكانه الخ — ابن الأثير ج ٩ ص ٣٩ .

قربوا للاختصاء شُقّت الخصيتان ، فأُخرجت البيضتان ، فربما فزع الصبى ، فصعدت إحدى البيضتين ، وطُلبت فلم توجد فى الوقت ، ثم تنزل بعد ما التحم الشق فإن كانت اليسرى كانت له شهوة ومنىّ ، وإن كانت اليمنى خرجت له لحية مثل فلان وفلان ، فأبو حنيفة رحمه الله أخذ بقول النبى صلى الله عليه وسلم الولد للفراش . وجاز أن يكون من الخدم الذين بقيت بيضتهم . وذكرتُ قوله لأبى سعيد الجورى بنيسابور ، قال : قد يجوز هذا لأن إحدى بيضتىّ صغيرة ، وكانت لحيته نزراً خفيفة . وإذا خصوم جعلوا فى منفذ البول مرور رصاص يخرجونه أوقات البول إلى أن يبرءوا كى لا يلتحم »[1] .

وكانت هذه العملية الشنيعة تقلل عدد الخصيان وتزيد أثمانهم ، فكان ثمن الخصىّ فى بوزنطة مثلا فى ذلك العصر يساوى أربعة أمثال الخادم العادى[2] وحوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م أُطلق على هؤلاء التعساء أسماء أقرب إلى الاحترام فسُمّى الواحد منهم بالخادم[3] ، أو المعلم أو الشيخ أو الأستاذ[4] ، على حين كانوا فى العصور الأولى يسمون بالخصيان مع ما فى ذلك من تشهير .

وكان الخصيان دائماً يلقون من العوام كثيراً من السخرية ؛ ويحكى المسعودى أن العوام كانوا يستهزئون بالخدم السودان فى الشوارع ويصيحون بهم ويقولون : « يا عتيق ، صب ماء واطرح دقيق ؛ يا عاق ، يا طويل الساق »[5] وحدث فى عام ٢٨٤ هـ — ٨٩٧ م أن وجه الخليفة المعتضد خادماً أسود عشية الجمعة برقعة إلى ابن حمدون النديم ، فلما بلغ الخادم رأس الجسر من الجانب الشرقى صاح به صائح

---

(١) المقدسى ص ٢٤٢ — ٢٤٣ . (٢) Vogt, Basile, 1, 383 .

(٣) على أن الجوهرى — وهو الذى دوّن الاصطلاح اللغوى القديم — لا يذكر لهذه الكلمة معنى الخصىّ ، ولكنه يقول إنهم يسمون الخدم رجالا ونساء . أما إلياس النصيبينى (ولد عام ٣٦٤ هـ — ٩٧٤ م) فهو يترجم دائما بكلمة شاريشا ومعناها الخصى بالسريانية .

(٤) المقدسى ص ٢١ . (٥) مروج الذهب ج ٨ ص ١٨٠ .

من العامة : يا عقيق ، فشتم الخادمُ الصائحَ ، فاجتمع قوم من العامة ، وضربوا الخادم ، فضاعت الرقعة التي كانت معه ، فرجع إلى الخليفة وأخبره بالقصة ، أمر رجلا بالركوب والقبض على كل من تولّع بالخدم وضَرْبه بالسياط[١] . وكانت قصص الخدم موضوعاً دائماً للقُصاص وأصحاب النوادر والمضاحك في الطرق ، وكان تقليد أصواتهم وحركاتهم مما يجذب الناس إليهم[٢] .

وقد اشتهر الخصيان بالصبر على طول الركوب ، حتى فاقوا في ذلك فرسان الترك[٣] . وكذلك يعرض لهم حبُّ الرمي بالنشاب[٤] . وبالجملة ظهر من بينهم قواد شجعان ؛ وإذا كان عند الروم منهم في القرن الرابع الهجري نارسيس (Narses) وسلمون (Salomon) ، فقد كان عند المسلمين مؤنس القائد ، وكذلك فائق قائد السامانيين ، فكان أيضاً خصيا[٥] . وكان ثمل الخادم هو القائد البحري صاحب الانتصارات بطرسوس[٦] كما كان عند الروم الأمير نكيتاس (Niketas) الذي انتصر على صقلية ، فقد كان خصيا أيضاً . وفي الحرب البحرية التي وقعت بين أسطول الفاطميين وأسطول الخليفة عام ٣٠٧ هـ — ٩١٩ م كان الأميران اللذان توليا القيادة خصيّين[٧] . ولما وقعت الفتنة في مصر أيام الحاكم بأمر الله لميله إلى المذهب الدرزي — مما كان سببا في استهزاء الناس به ، وتأليفهم على لسانه أشعاراً وكتباً تُحبِّب الناس في هذا المذهب حتى غضب وفرّق عبيدَه السودان على المدينة يحرقونها ويسبون أهلها وينهبون أموالهم ، وتفاقم الأمر — كان الذي وجّه نظرَ الحاكم إلى هذه الحالة المنكرة خادماً صقلبيا له : ذلك أن

(١) الطبري ج ٣ ص ٢١٦٤ . (٢) مروج الذهب ج ٨ ص ١٦٢ ، ١٦٤ .
(٣) المحاسن والمساوئ للبيهقي ص ٦١٠ .
(٤) كتاب الحيوان للجاحظ ج ١ ص ٦٢ . (٥) رسائل الهمذاني ص ١٩ .
(٦) كتاب العيون والحدائق صفحة ١٠٠ ا من الجزء الرابع .
(٧) الولاة للكندي ص ٢٧٦ .

الحاكم بعثه لتهدئة الفتنة ، فلما شاهد فظاعةَ الأمر قتلَ بعض العبيد ، وعاد إلى الحاكم حَنِقا مما شاهد ، وشرح له قُبْح النازلة ، وكان مما قال له : لو أن باسيل ملك الروم دخل مصر لما استجاز أن يفعل بها مثل هذا ، فنقم عليه الحاكم وقتله بسبب هذه الصراحة والجرأة[١] ولم يكن يتمتع بثقة عضد الدولة مع قلة ثقته وشدة تجبّره وقسوته على رعيته إلا غلامٌ خصى أسود يسمى شكراً ، فقد كان مستوليا على جميع أموره ، ولم يكن أحد من أولاده يجرؤ على الدخول إليه فى علته مع تطاولها . وقد استشعر ابنهُ الأكبر شرفُ الدولة أن أباه قد مات ، وأن شكراً يكتم ذلك ، فهجم ودخل إلى الموضع الذى فيه أبوه ، وكان حيا ؛ فاستوحش عضد الدولة من ولده ، ونفاه إلى كرمان[٢] . وكان الوصى على الخليفة الحاكم بأمر الله فى صغره خصيا أبيض يدير شؤون الدولة الفاطمية . ولم يكن الخصيان يُمنعون إلا من الوظائف الدينية ، إلى أن كان العصر الأخير من الحروب الصليبية فعيّن أحدهم قاضياً بدمياط[٣] . وقد عُرفوا فى الشرق بأن الواحد منهم لا يصلع ، ولم يُسمع قط بأن أحدا منهم كان مخنّثا ، مع أن ذلك كان ينبغى أن يكون فيهم[٤] . ومن صفاتهم التى يختصون بها ولوعهم بالعبث واللعب بالطير والفخ ؛ وهم أكثر من يرتاد أسواق الطيور[٥] . والخصىّ من صباه يحسن صنعة الدبرق ، ويجيد دعاء الحمام الضوارى[٦] . أما خصالهم القبيحة فنَتْنُها طويل . فمنها خُبْث العَرَق وصِنانه ؛ ونَتنُ الرائحة ، خلافا لما يُخصى من الحيوان ، فإنه ينقص نَتَنُه ، ويذهب

---

(١) تاريخ يحيى بن سعيد ص ١٣٠ ا — ب .
(٢) نفس المصدر ص ١٠٧ ا وابن الأثير ج ٩ ص ٣٩ .
(٣) الأوائل للسيوطى .
(٤) البيهقى ص ٦٠٩ ، والحيوان للجاحظ ج ١ ص ٤٩ ، ٦٢ .
(٥) البيهقى ص ٦١٠ — ٦١١ ، والخطط للمقريزى ج ٢ ص ٩٦ .
(٦) الحيوان ج ١ ص ٥٣ ، والمؤلف يقرأ النص هكذا : صنعة الدبؤر .

صنائه[١] ؛ وطولُ العظم وعرضه ، خلافا للحيوان ، فإنه متى خُصى دق عظمه وعاد رخصاً رطباً بعد أن كان عَضِلا صلبا ؛ وطولُ القدم وأعوجاج الأصابع ويعرض لهم سرعة التغيّر والتبدّل ، والانقلاب من حد الرطوبة والبضاضة وملامسة الجلد وصفاء اللون ورقته والتقبّض إلى الهزال ؛ وسرعةُ الرضى والغضب وحب النميمة ، وضيق الصدر ، وسرعة الدمعة كالصبيان والنساء ؛ والبول فى الفراش ، وحب الشراب والإفراط فيه ، والشره عند الطعام والبخل عليه[٢] .

وقد اتهموا خاصة بحبهم لخدمة الملوك وامتلاكهم لهم بشدة استخفافهم بمن لم يكن ذا سلطان عظيم أو مال كثير أو جاه عريض[٣] ، وكان أبو الفتوح برجوان خادماً أبيض خصيا رُبّى فى دار الخليفة العزيز بالله ، وولاه أمر القصور ، فلما حضرته الوفاةُ وصّاه على ابنه الحاكم بأمر الله ، وقام بتدبير الدولة أبو محمد الحسن بن عمار الكتانى ، فدبر الأمور وبرجوان يناكده ، حتى أفسد عليه أمره بتدخله فى التدبير ، وترقت أحواله حتى بلغ النهاية ، وصار هو الواسطة بين الحاكم وبين الناس . ثم قصّر عن الخدمة وتشاغل باللذات وكثر استبداده حتى نقم عليه الحاكم أموراً ، منها تجرؤه عليه ومعاملته له بالإذلال . ومن ذلك أنه استدعاه يوماً وهو راكب معه ، فصار إليه وقد ثنى رجله على عنق فرسه وصار باطن قدمه قبالة وجه الحاكم . وكان آخر أمره أنه قتله أحد الخدم فضربه بسكين فى عنقه وهو فى بستان ، وأثخنه آخرون بالخناجر[٤] .

وقد ظهرت مع اتخاذ هؤلاء الخصيان عادة جديدة ظريفة وهى خلط زىّ الخدم . يحكى المسعودى أنه لما أفضى الأمر إلى الأمين قدّم الخدم وآثرهم ورفع

---

(١) يقول المسعودى ص ١٤٩ إن آباطهم ليست نتنة .
(٢) انظر بقية خصالهم عند الجاحظ والبيهقى .
(٣) الحيوان للجاحظ ج ١ ص ٦٢ ، ٧٢ .
(٤) الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٣ — ٤ .

منازلهم ، فلما رأت أم جعفر شدة شغفه بالخدم واشتغاله بهم اتخذت الجوارى المقدودات الحسان الوجوه وعمّمت رءوسهن وألبستهن الأقبية والمناطق ، فاست قدودهن ، وبرزت أردافهن ، وبعثت بهن إليه ، فاختلفن بين يديه فاستحسنهن واجتذبن قلبه إليهن ، وأبرزهن للناس من الخاصة والعامة ، فاتخذ الناس الجوارى المعلومات وألبسوهن الأقبية والمناطق ، وسموهن الغلاميات [١] وكانت عريب المغنية المشهورة ، وهى فى سن سبع عشرة ، وصيفة للأمين الذى « كان أحسن خلق الله ، ولم يُرَ ذكر ولا أنثى مثله جمالا وحسنا » ، وهى تقول : « فكنت ألبس قباء ومنطقة وأقوم على رأسه ، وربما سقيته [٢] » . ونجد فى قصور الخلفاء بعد ذلك بقرن جوارى يلبسن ملابس الغلمان [٣] ، وكذلك امتدت هذه العادة أيضاً إلى ساقيات الشراب [٤] .

ولم يكن لهذا الولوع بالغلمان شأن طوال العصور التى كانت السيادة فيها للروح العربية ، ولم يكن ثم ما يدعو الفقهاء الأولين إلى الكلام فى ذلك . أما فى القرن الرابع فقد اختلفت آراء الفقهاء فى اللواط بالغلمان اختلافاً بيّنا ، فأراد البعض أن يعتبروه كالزنا ، وأن يجعلوا عقابه القتل والرجم [٥] . وأراد آخرون أن يفرّقوا بين اللواط بالغلام المملوك وغير المملوك ، وقالوا إن الحدّ لا يلزم الأول بخلاف الثانى ؛ والأكثرون على أنه لا حدّ فيه ، وهو يوجب التعزير من القاضى [٦] . وفى الأخبار المأثورة عند المسلمين أن هذ اللواط أتى من المشرق مع جيوش العباسيين

---

(١) مروج الذهب ج ٨ ص ٢٩٩ .

(٢) كتاب الديارات للشابشتى ص ٧٠ أ من مخطوط برلين .

(٣) مروج الذهب ج ٨ ص ٣٠٠ .

(٤) ديوان أبى نواس ص ٢٣٤ ، ٢٤٠ ؛ وحينما يتكلم هذا الشاعر (ص ٣٧٠) عن الجارية بضمير المذكر أحيانا (هو) فهو يشير إلى هذه العادة .

(٥) كتاب الخراج لقدامة مخطوط رقم ٩٠٧ بمكتبة باريس ص ٢٩ ب .

(٦) طبقات السبكى ج ٣ ص ١٨ .

الذين جاءوا من خراسان[1] . على أن بلاد الأفغان كانت مشهورة بذلك فى القرن الثالث أو الرابع للهجرة[2] . ثم شاع واستقر فى القرن الرابع ، والغزل الذى قيل فى التوجع من هوى الذكران يعادل ما قيــل فى النساء على الأقل ؛ أما الشعراء الذين كان تشبيبهم مقصوراً على الغلمان دون غيرهم ، وكانوا مجاهرين فى الاستهتار بالغلمان ، فقــد كانوا قليلين ، مثل مصعب[3] والسلامى المتوفى عام ٣٩٤ هـ — ١٠٠٣ م[4]. على أن الشعراء الآخرين الذين اقتصروا على التشبيب بالنساء ليسوا هم أيضاً بالــكثيرين . بل نجد للشاعر أبى فراس مع شرفه ونبله واتزانه قصائد فى التشبيب بالغلمان[5] . وحوالى عام ٣٣٠ هـ كان بالبصرة نصرُ بن أحمد الخبز أرزى الشاعر ، وكانت حرفته خبز الأُرز فى دكانه بمربد البصرة ، فكان يخبز وينشد أشعاره فى الغزل ، والناس يزدحمون عليه ، وكان أحداثُ البصرة يتنافسون فى ميله إليهم وذكره لهم ، ويحفظون كلامه لسهولته وقرب مأخذه ، ومن ذلك قوله :

ودِدْتُ أنى بكفــه قلم   أو أننى مدة على قلمــه

---

(١) حكى الجاحظ (المتوفى عام ٢٥٥ هـ — ٨٦٨ م) فى كتاب المعلمين سبب حدوث هذه الفاحشة فى الخراسانيين ، وهو خروج الأجناد فى البعوث مع الغلمان ، وذلك حين سنَّ أبو مسلم ألا يخرج النساء مع الجند خلافاً لبنى أمية الذين كانوا يسمحون بخروج النساء مع العسكر . فلما طال مكث الغلام مع صاحبه فى الليل والنهار وعند البأس والسفر — وهم جنود لحول تقع أبصارهم على خد كخد المرأة وردف كردفها وساق كساقها — تولدت هذه الفاحشة . انظر حمزة الأصفهانى فى ديوان أبى نواس مخطوط برلين رقم ٧٥٣٢ ص ١٩٣ ب — ١٩٤ أ — وانظر Mittwoch, MSOS, 1910, s. 138.

(٢) المضاف والمنسوب للثعالبى (ZDMG, VIII, s, 56) .

(٣) كتاب الديارات ص ٨٣ أ .   (٤) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٢٦٣ وما بعدها .

(٥) Dvorak, s. 165 ff قال أبو فراس :

سكرت من لحظه لا من مدامته   ومال بالنوم عن عينى تمايله
فما السلاف دهتنى بل سوالفه   ولا الشمول ازدهتنى بل شمائله
ألوى بعزمى أصــداغ لوين له   وغال صــبرى ما تحوى غلائله

يأخذني مرة ويلثمني   إن علقت منه شعرة بفمه[١]

وكان الولع بالغلمان شأن العامة والخاصة ، ولكننا لم نسمع أن أحد الخلفاء استهتر بغلام . على أنه يحكى عن الأمير بختيار البويهي أنه أُسر له في إحدى المواقع غلامٌ تركي ، فجن عليه جنوناً ، وحدث له من الحزن ما لم يسمع بمثله ، « وزعم أن فجيعته بهذا الغلام فوق فجيعته بالمملكة والانسلاخ منها ومن النعمة » وما زال يظهر الشكوى حتى خف ميزانه عند الناس وسقط من عيونهم[٢] ولكن بختيار هذا كان سيء الحكم مذموماً . بل يحكى أن سيف الدولة صاحب حلب المشهور بحروبه وغزواته كان له غلام يسمى باسم مؤنث وهو : نمل ، وكان عزيزاً عليه[٣] . وكان من ذوق ذلك العصر أن يكون الغلام الذي يستهتر به أغن الصوت ، غنَّاجاً ، ألثغ السين[٤] . على أنه كان على شاطئ دجلة مكان للهو فيه إلى جانب الخمار والخمر « ظبيٌ غرير » أو « ظبية غريرة » ، وقاصده لا يدفع لهذا كله في الليلة إلا درهمين[٥] . ويحكى عن الخليفة الحاكم بأمر الله بمصر أنه عنَّ له في أثناء ركوبه بالليل رأيٌ سخيف ، فكان يأمر أحد رجاله بأن يأتي شيخاً خليعاً بمشهد منه ومن الجمع الحاضر ، ويضحك من هذا المنظر القبيح ويطرب له[٦] . وقد كان التولع بالغلمان سبباً في قصص غرامية شيقة ، فيُحكى عن أبي عبد الله بن محمد نفطويه المتوفى عام ٣٢٣ هـ — ٩٣٥ م ، وكان عالماً

---

(١) يتيمة ج ٢ ص ١٣٣ ومروج الذهب ج ٨ ص ٣٧٤ .

(٢) مسكويه ج ٦ ص ٤٦٩ ، وابن الأثير ج ٨ ص ٤٩٠ .

(٣) مسكويه ج ٦ ص ٨١ .

(٤) كتاب الديارات الشابشتي ص ١٢٧ ا ، والإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٣٤٠ :

وشادن قلت له ما اسمكا   فقال لي بالغنج عباث

فصرت من لثغتـه ألثغا   فقلت أين الكاث والطاث

(٥) يتيمة الدهر ج ١ ص ٤٨٣ .

(٦) تاريخ يحيي بن سعيد ص ١٢٧ ا — ب من مخطوط باريس .

بالعربية واللغة والحديث ، أنه كان بينه وبين محمد بن داود الأصفهانى الفقيه صا
المذهب المسمى باسمه مودةٌ أكيدة وتصافٍ تام ، وكان ابن داود يهوى أبا الحـ
محمد بن جامع الصيدلانى(١) هوى أفضى به إلى التلف ، فدخل عليه رجل
مرضه الذى مات فيه ، فقال له : يا سيدى ما بك ؟ فقال : حب من تعلم أور
ما ترى ... ثم قال : حدثنى سُوَيْد بن سعيد الحدثانى عن أبى يحيى القتات
مجاهد عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : من حبَّ فعفَّ وكتم ،
ثم مات ، مات شهيداً ... ثم مات من ليلته فى عام ٢٩٧ هـ ؛ فيقال إن نفطويه
تفجَّع عليه وجزع جزعاً عظيما ، ولم يجلس للناس سنة كاملة(٢) .

ويحكى عن أحمد بن كليب النحوى المتوفى عام ٤٢٦ هـ — ١٠٣٥ م أنه كان يحضر مجلس أحد النحاة فى جماعة ، وكان معهم ولدٌ لأحد القضاة يسمى أسلم ، وكان من أجمل من رأت العيون ، فاشتد كلفه بأسلم ، وصرّف فيه القول إلى أن فَشَتْ أشعارُه فيه وجرت على الألسنة ، وتنوشدت فى المحافل ، فلما بلغ الأمر هذا المبلغ انقطع أسلم عن جميع مجالس الطلب ، ولزم بيتـه والجلوس على بابه ، فكان أحمد بن كليب لا شغل له إلا المرور على باب أسلم سائراً ومقبلا نهاره كله ، فانقطع أسلم عن الجلوس على باب داره نهاراً ، وكان إذا صلى المغرب واختلط الظلام خرج مستروحاً ، وجلس على باب داره ، فعيل صبر أحمد بن كليب ، فاحتال فى بعض الليالى ، وتزيَّا بزى أهل البادية ، وأخذ بإحدى يديه دجاجاً وبالأخرى قفصاً فيـه بيض ، وتحيَّن جلوس أسلم عند اختلاط الظلام ، فتقدم إليه ، وقبّل يده مدّعياً أنه أحد أصحابه فى الضياع التى يملـكها يقـدم له هدية ، فأمر أسلم بأخذ ذلك منه ثم جعل يسأله عن الضيعة ، فلما أجابه أنكر

(١) كان نفطويه غير مكترث بإصلاح نفسه . وكان يتأذى الناس بكثرة صنانه .
(٢) الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٣٠٨ — ٣٠٩ .

الكلام ، ثم تأمله ضرنه ، فقال له : يا أخى ، وهنا بلغت بنفسك ... أما كفاك انقطاعى عن مجالس الطلب وعن الخروج جملة ؟ ... وأقسم ألا يقعد على باب داره ليلا ولا نهاراً ، فلما يئس أحد من رؤيته ألبتة نهكته العلة وأضجعه المرض ، وزاره أحد أصحابه فوجده بأسوإ حال ، وقال له : إن دوائى نظرة من أسلم ، فلو سعيت فى أن يزورنى لأعظم الله أجرك ، وكان هو والله أيضاً يؤجَر ، فذهب الصاحب إلى أسلم ، وما زال به حتى وعده بالزيارة بعد تأبٍ وتأجيل ، حكى هذا الصاحب : « فأخذ رداءه ونهض معى راجلا إلى منزل أحمد بن كليب ، وكان يسكن فى آخر درب طويل ، فلما توسط الدرب وقف واحمرّ وخجل وقال لى : الساعةَ والله أموت ، وما أستطيع أن أنقل قدمى ، ولا أن أعرض لهذا نفسى ، فقلت : لا تفعل بعد أن بلغت المنزل أن تنصرف ؛ قال : لا سبيل والله إلى ذلك ألبتة ، ورجع مسرعاً فاتبعته وأخذت بردائه فتمادى وتمزّق الرداء ، و بقيت قطعة منه فى يدى ... فرجعتُ ودخلت الدار على أحمد بن كليب ، وقد كان غلامه دخل إليه إذ رآنا من أول الدرب مبشراً ، فلما رآنى دونه تغير لونه وقال : أين أبو الحسن (أسلم) فأخبرته بالقصة ، فاستحال من وقته ، واختلط وجعل يتكلم بكلام لا يُعقل منه أكثر من الترجع ... ، فخرجت عنه فوالله ما توسطت الدرب حتى سمعت الصراخ عليه وقد فارق الدنيا » . ثم رُؤى أسلم فى يوم شديد المطر لا يكاد أحد يمشى فى طريق ، وهو قاعد على قبر أحمد بن كليب زائراً له ، وقد تحيّن غفلة الناس فى مثل ذلك الوقت . وكان أحمد بن كليب قد أهدى إلى أسلم فى أول أمره كتاب الفصيح وكتب عليه :

هذا كتاب الفصيح بكل لفظ مليح
وهبته لك طوعا كما وهبتك روحى (١)

(١) كتاب المنتظم لابن الجوزى ص ٢٨٩ ب — ١٩٠ ب والإرشاد لياقوت ج ٢ ص ١٩ — ٢٣.

وثم قصة أخرى حكاها أبو بكر الصنوبرى الشاعر الشامى المتوفى عام ٣٣٤ هـ — ٩٤٥ م قال : « كان بالرُّها وراق يقال له سعد ، وكان فى دكانه مجلس كل أديب ، وكان حسن الأدب يعمل شعراً رقيقاً ، وما كنا نفارق دكانه أنا والمعوج الشامى الشاعر وغيرنا من شعراء الشام وديار مصر ، وكان لتاجر بالرها نصرانى من كبار تجارها ابنٌ اسمه عيسى من أحسن الناس وجها ، وأحلاهم قدًّا ، وأظرفهم طبعاً ومنطقاً ، وكان يجلس إلينا ويكتب عنا أشعارنا وجميعنا يحبه ويميل إليه وهو يومئذ صبي فى الكتاب ، فعشقه سعدٌ الوراق عشقاً مُبرّحاً ، وعمل فيه الأشعار . . . . ثم شاع بعشق الغلام فى الرها خبره ، فلما كبر وشارف الأشلاف أحب الرهبنة ، وخاطب أباه وأمه فى ذلك ، وألح عليهما حتى أجاباه ، وخرجا به إلى دير زكّى بنواحى الرقة ، وهو فى نهاية حسنه ، فابتاعا له قلاية ، ورفعا إلى رأس الدير جملة من المال عنها ، فأقام الغلام فيها . وضاقت على سعد الوراق الدنيا بما رحبت ، وأغلق دكانه ، وهجر إخوانه ، ولزم الدير مع الغلام ، وسعد فى خلال ذلك يعمل فيه الأشعار . . . . ثم إن الرهبان أنكروا على الغلام كثرة إلمام سعد به ، ونهوه عنه وحرموه إن أدخله ، وتوعدوه بإخراجه من الدير إن لم يفعل ، فأجابهم إلى ما سألوا من ذلك . فلما رأى سعد امتناعه منه شق عليه ، وخضع للرهبان ، ورفق بهم فلم يجيبوه ، وقالوا : فى هذا علينا إثم وعار ، ونخاف السلطان ، فكان إذا وافى الدير أغلقوا الباب فى وجهه ، ولم يدعوا الغلام يكلمه ، فاشتد وجده وزاد عشقه حتى صار إلى الجنون ، فخرق ثيابه وانصرف إلى داره ، فضرب جميع ما فيها بالنار ، ولزم صحراء الدير ، وهو عريان يهيم ، ويعمل الأشعار ويبكى ؛ قال أبو بكر الصنوبرى : ثم عبرت يوما أنا والمعوج من بستان بتّنا فيه ، فرأيناه جالساً فى ظل الدير ، وهو عريان ، وقد طال شعره ، وتغيرت خلقته ، فسلمنا عليه ، وعذلناه وعاتبناه فقال : دَعَانى من هذا الوسواس ، أترَيان ذلك الطائر على

هيكل ؟ وأومأ بيده إلى طائر هناك ، فقلنا : نعم ، فقال : أنا وحقكما يا أخوىّ أناشده منذ الغداة أن يسقط فأحمله رسالة إلى عيسى ، ثم التفت إلىّ وقال : يا صنوبرى معك ألواحك ؟ قلت : نعم . قال اكتب :

بدينك يا حمامةَ دير زكّى	وبالإنجيل عندك والصليب
قفى وتحملى عنى سلاماً	إلى قسر على غصن رطيب
حماه جماعة الرهبان عنى	فقلبى ما يقرّ من الوجيب
وقالوا : رابنا إلمام سعد	ولا والله ما أنا بالمريب
وقولى سعدك المسكين يشكو	لهيب جوى أحر من اللهيب
فصله بنظرة لك من بعيد	إذا ما كنت تمنع من قريب
وإن أنا متّ فاكتب حول قبرى	محب مات من هجر الحبيب
رقيب واحد تنغيص عيش	فكيف بمن له مائتا رقيب

ثم تركنا وقام يعدو إلى باب الدير وهو مغلق دونه ، وانصرفنا ، وما زال كذلك زماناً ، ثم وُجد فى بعض الأيام ميتاً إلى جانب الدير ، وكان أمير البلد يومئذ العباس بن كيغلغ ، فلما اتصل ذلك به وبأهل الرها خرجوا إلى الدير ، وقالوا : ما قتله غير الرهبان ، وقال لهم ابن كيغلغ لا بد من ضرب رقبة الغلام ، وإحراقه بالنار ، ولابد من تعزير جميع الرهبان بالسياط ، وتصعّب فى ذلك ، فافتدى النصارى نفوسهم وديرهم بمائة ألف درهم . فكان الغلام بعد ذلك إذا دخل الرها لزيارة أهله صاح به الصبيان : يا قاتل سعد الوراق ، وشدُّوا عليه بالحجارة يرجونه ، وزاد عليه الأمر فى ذلك حتى امتنع من دخول المدينة ، ثم انتقل إلى دير سمعان وما أدرى ما كان منه »[1] . وكان بعض العلماء يمنعون الشبان غير الملتحين من

---

(١) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٢٣ — ٢٦ .

حضور دروسهم ، ولعل ذلك لخوفهم من مثل هذه القصص الغرامية ، وكان بعض شديدى الإقبال على التعلم من الصبيان يتخذون لحًى مصطنعة ، ليتمكنوا من التسرب إلى مجالس أولئك العلماء[١] .

أما البغاء فليس شيئاً يستعيض به العزاب عن الزواج كما يرى المفكرون الاجتماعيون ، بل هو من حيث أصله نظام فى الديانات القديمة غريب شأنه شأن نظام الخصيان . وقد انتشر البغاء على الرغم من أن إباحة الزواج بأكثر من واحدة ، وأن العرف كان من شأنهما أن يجعلا حال الرجل غير المتزوج أو المرأة غير المتزوجة أمراً يستلفت النظر لأنه شاذ جدا ، وعلى الرغم من أن الشريعة جعلت حد الزانى المتزوج قاسياً ، فقضت أن يُرْجَمَ حتى يموت . على أن الشارع شدّد واحتاط فى إثبات تهمة الزنا إلى حد لا يمكن معه الحكم بهذه العقوبة[٢] . وقد وصف أحد الرحالة المسلمين حوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م حال البغاء فى الصين وتكلم عن الزوانى ، وهن يُثْبَتْنَ فى ديوان خاص بهن يسمى ديوان الزوانى ، وعليهن فى كل سنة ضريبة يؤدّينها لبيت المال ، ثم قال : « ونحن نحمد الله على ما طهّرنا به من هذه الفتن »[٣] . ولكن لم تمض على ذلك خمسون سنة حتى بلغ من إهمال عضد الدولة المتوفى عام ٣٧٢ هـ — ٩٨٢ م الشريعة أنه فرض على الراقصات والقحاب بفارس ضريبة ، وكان يضمّن هذه الضريبة . يقول البيرونى بعد حكاية ما كان عليه ملوك الهند من فرض الضريبة على المغنيات والراقصات طلباً للمال : « وهكذا كان عضد الدولة ، وأضاف إليه حماية الرعية من عزّاب

---

(١) Wüstenfeld, AGGW, 37, Nr. 88.

(٢) محاضرات الأدباء ج ١ ص ١٢٩ .

(٣) سلسلة التواريخ طبعة Reinaud ص ٧٠ ، عن أبى زيد السيرافى ؛ قارن المسعودى (مروج الذهب) ج ١ ص ٢٩٥ .

الجنسد »[١] . وقد أخذ الفاطميون بهذا النظام فرضوا الرسوم على بيوت الفواحش[٢] . وفى حكاية اخترعت حوالى آخر القرن الرابع الهجرى أن عضد الدولة خطب الأميرة جميلة الحمدانية ، فامتنعت عليه ، فلما أسرها استولى على جميع أموالها ، وقيل إنه فرض عليها مالا ، وألزمها إما أن تؤديه أو تختلف إلى دار القحاب لتكتسب ما تؤديه ، حتى إذا ضاق بها الأمر انتهزت غفلة الموكلين بها ، وغرقت نفسها فى دجلة[٣] . ومن عجائب ما كان بمدينة اللاذقية أن المحتسب كان يجمع القحاب والغرباء المؤثرين للفساد من الروم فى حلقة ، وينادى على كل واحدة منهن ، ويتزايد الفسقة فيهن لليلة ، ثم يؤخذن إلى الفنادق التى يسكنها الغرباء ، بعد أن تأخذ كل واحدة منهن خاتماً يسمى خاتم المطران ؛ لينكون حجة بيدها من تعقب الوالى لها . وإن وجد خاطئ مع خاطئة من غير خاتم المطران عوقب . على أن هذا النظام لم يذكر إلا بعد أن عادت مدينة اللاذقية إلى حكم الروم[٤] . غير أن المقدسى يحكى لنا أنه فى مدينة السوس قصبة خوزستان تُرى دُور الزنا عند أبواب الجامع ظاهرة[٥] ، هذا على حين أن ابن حوقل يقول إنه ليس فى بلدان المغرب من الفواحش الظاهرة ، وتعاطى الأمور المنكرة والفسق الشنيع ؛ مثل ما فى المشرق[٦] .

وفى عام ٣٢٣ هـ — ٩٣٤ م قام الحنابلة ، وهم مسلمون متطرفون ، لمطاردة المنكر فى بغداد ، وعظم أمرهم ، وقويت شوكتهم ، حتى صاروا يكبسون دور القواد والعامة ، فإن وجدوا نبيذاً أراقوه ، وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء ،

---

(١) كتاب الهند للبيرونى ص ٢٧٩ والمقدسى ص ٤٤١ .
(٢) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٨٩ .
(٣) انظر هامش ص ٤٣ من الجزء الأول لهذا الكتاب .
(٤) أخبار الحكماء للقفطى ص ٢٩٨ من الطبعة الأوروبية .
(٥) المقدسى ص ٤٠٧ ، ٤٤١ . (٦) ابن حوقل ص ٧٠ .

وصاروا يعترضون فى البيع والشراء ، وفى مَشى الرجال مع النساء والصبيان ، فإذا رأوا ذلك سألوا الرجل عن الذى معه من هو ، فأخبرهم وإلا ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة ، حتى أرهجوا بغداد [١] . على أن الماوردى يقول إن المحتسب « إذا رأى وقفة رجل مع امرأة فى طريق سابل لم تظهر منهما أمارات الريب لم يعترض عليهما بزجر ولا إنكار ، فما يجد الناس بدا من هذا ؛ وإن كانت الوقفة فى طريق خال فخلوُّ المكان ريبة ، فينكرها ولا يعجّل بالتأديب عليها حذراً من أن تكون ذات محرم ، وليقل : إن كانت ذات محرم فصنها عن مواقف الريب ، وإن كانت أجنبية فخف الله تعالى من خلوة تؤديك إلى معصية الله تعالى » [٢] على أن العادة المستحسنة فى نظر الشرع هى أن يقرّ النساء فى بيوتهن ، ولا تُحمد لهن كثرة الخروج . وقد عن للحاكم بأمر الله فى مصر أن يغلو فى مراعاة آداب الشريعة ، فمنع النساء من المشى فى الطرقات ، ومنع الأساكفة من عمل خفاف لهن ، وإذا دعت الضرورة إلى حضور غاسلة أو قابلة استؤذن فى ذلك برقعة ترفع إليه فيوقع عليها إلى متولى الشرطة ليسمح بذلك [٣] . وبعد أن كانت عادة استقرار النساء فى البيوت أدباً شرعيا صارت عادة بين الأشراف والكبراء ، حتى فى اسبانيا ، « وبتأثير الأسبان كانت لا ترى امرأة قط فى شوارع إيطاليا حوالى منتصف القرن السابع عشر الميلادى » [٤] .

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .

(٢) الأحكام السلطانية طبعة إنجر Enger ص ٢١٨ .

(٣) تاريخ يحيى بن سعيد ص ١٢٤ أ ؛ والخطط المقريزى ج ٢ ص ٢٨٩ ؛ وملحق أخبار القضاة والولاة الكندى ص ٦٠٦ . ويقول ڤستنفلد (Wüstenfeld, Staathalter Aegyptens, II, s. 58) إن هذا المنع حدث فى مصر عام ٢٥٣ هـ — ٨٦٧ م وقد حكى الكندى ذلك على صورة أخرى (الولاة الكندى ص ٢١٠) ، وقد توفى الكندى عام ٣٥٠ هـ — ٣٦١ م .

(٤) Stendhal, Promenades, II, s. 358 .

حكى صاحب العقد الفريد أن « أحق الناس بثلاث لطمات من دُعى إلى طعام فقال لصاحب المنزل : ادْعُ ربة البيت تأكل معنا »[١]. وكان يحل محل ربة البيت على موائد الدعوات ضربٌ من الخطايا كما كان الحال عند اليونان القدماء ، وكُنّ نساء متقنات مدرّبات على أرقى الآداب الاجتماعية ؛ حائزاتٍ كل مظاهر الجمال والثقافة والفن ، متعودات على الحديث مع الرجال من غير وجل . ويشعر الإنسان أن هذا الفصل كان فيه راحة للبيت وللجماعة . وكان أغلب هؤلاء النساء جوارى مملوكات ، ولكن كان منهن من تعمل بأجر ومعظم هؤلاء معتقات . ومما يذكر أن مغنية مشهورة كانت تشتغل فى النهار بدينارين وفى الليل بدينار[٢] . ويحكى أن غلاماً وقع فى هوى جارية مغنية ، فأخذ فى استعطافها بالمراسلات والمكاتبات ، والجارية بغدادية لا تعرف إلا الدينا والدينار ، وجعل يصف فى رقاعه عشقَه وسهرَه فى الليالى وتقلُّبَه على حرّ المقالى وامتناعَه من الطعام والشراب ، وما يشاكل هذا من الهذيان الفارغ الذى لا طائل فيه ، فلما أعياه أمرها ، ويئس من تعطُّفها عليه ، كتب إليها فى رقعة : وإذْ قد مَنَعْتِنى زيارتَك واستزارتك فمُرى بالله خيالك أن يطرقنى ويبرّد حرارة قلبى ، أرشدينى إلى خيالك حتى أتقاضاه موعداً لى عليه ، فقالت لرسوله : قولى لهذا الرقيع : يا مُدْبِر ، أنا أعمل بك ما هو خير لك من أن يطرقَك خيالى ، احمل دينارَيْن فى قرطاس حتى أجيئك بنفسى[٣]. على أنه فى هذه الناحية كان عرف البلاد ظاهراً إلى جانب النظريات الشرعية . وقد لاحظ العرب تلك الحرية الكبيرة التى تركها رجال القبط لنسائهم ، وعلّل بعضهم ذلك بأنه لما غرق فرعون وقومه لم يبق من الرجال إلا العبيد والأجراء ، ولم يصبر النساء عن الرجال فطلقت المرأةُ تعتق عبدها

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه ج ١ ص ٢٨٥ من طبعة مصرية .

(٢) الأغانى ج ١٩ ص ١٣٦ . (٣) حكاية أبى القاسم طبعة متز ص ٢٣ .

وتتزوجه ، وتتزوج الأخرى أجيرها ، وشَرَطْن على الرجال ألا يفعلوا شيئاً إلا بإذنهن ، فأجابوهن إلى ذلك ، فكان أمر النساء ينفذ على الرجال . قال يزيد بن أبي حبيب إن نساء القبط على ذلك إلى اليوم اتباعاً لمن مضى منهم لا يبيع أحد منهم ولا يشترى إلا قال أستأمر زوجتى[١] . وقد احتفظ النساء بمصر بعد الإسلام بشيء من ذلك ، فيقول المقدسى إن النساء بمصر لا يتورّعن عن الفجور ، وللمرأة زوجان[٢] . وهو يقول عن أهل شيراز « وحُدِّثتُ عن نسائهم بشيء قبيح » ، ويحكى أن نساء هراة « يغتلمن إذا ازدهرت أشجار الصبيراء كما تغتلم السنانير »[٣] .

ويظهر أنه فى تلك العصور ظهر صوت يطالب للنساء بالحق فى المهام الكبيرة حوالى عام ٣٠٠ هـ — ٩١٢ م ؛ لأن ابن بسام الشاعر يقول[٤] :

ما للنساء وللكتا بة والعمالة والخطابه
هذا لنا ، ولهنّ منّا أن يَبِتْن على جنابه

وكان من النساء عالمات فاضلات يقبل الناس على دروسهن مثل ستيتة بنت القاضى أبى عبد الله الحسين بن إسماعيل الضبى المحاملى ، وكان ابنها أيضاً قاضياً ، وتُكنى أم الواحد ، كانت فاضلة عالمة ، ومن أحفظ الناس للفقه على مذهب الشافعى ، وكانت تفتى مع العلماء ، وحدَّثَتْ وكُتب عنها الحديث ، وتوفيت عام ٣٧٧ هـ ؛ ومثل أم الفتح بنت القاضى أبى بكر أحمد بن كامل بن خلف بن شجرة التى توفيت عام ٣٩٠ هـ ، وأخذ عنها كثير من العلماء ، وكانت موصوفة

---

(١) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٣٩ .
(٢) المقدسى ص ٢٠٠ .
(٣) نفس المصدر ص ٤٢٢ ، ٤٣٦ .
(٤) صبح الأعشى للقلقشندى ص ٦٤ من الجزء الأول طبعة دار الكتب عام ١٣٤٠ هـ — ١٩٢٢ م .

بالديانة والعقل والفضل[1] . ومن الفقهاء من جوّز للمرأة أن تتولى القضاء ، فتقضى فيما تصح شهادتها فيه ، وهو أبو حنيفة ، وجوّز ابن جرير الطبرى قضاءها فى جميع الأحكام[2] . وتدل جميع الأخبار والحكايات على أن أهل الطبقة الوسطى كانوا يكتفون بزوجة واحدة ، ففى مقامة من مقامات الهمذانى مثلا أن أحد التجار يدعو رجلا إلى وليمة ، ويصف له نشاط زوجته ، فيقول : « يا مولاى ؟ لو رأيتها والخرقة فى وسطها ، وهى تدور من التنّور إلى القدور ، ومن القدور إلى التنور ، تنفث بفيها النار ، وتدقّ بيـدها الأبزار ، ولو رأيت الدخان وقد غبّر فى ذلك الوجه الجميل ، وأثّر فى ذلك الخد الصقيل ، لرأيت منظراً تحار فيه العيون ، وأنا أعشقها لأنها تعشقنى ، ومن سعادة المرء أن يُرزق المساعدة من حليلته ، وأن يسعد بظعينته »[3] . ويحكى عن الخليفة المعز لدين الله الفاطمى أنه خاطب جماعة من شيوخ كتامة قائلا لهم : « وأقبلوا بعد الأعمال على نسائكم ، والزموا الواحدة التى تكون لكم ، ولا تشرهوا إلى التكثّر منهن ، والرغبة فيهن ، فينغص عيشكم ، وتعود المضرّة عليكم ، وتنهكوا أبدانكم ، وتذهب قوتكم ، وتضـعف نحائزكم ، فحسب الرجل الواحد الواحدة »[4] . وكذلك يستحسن أبو العلاء ألا يشرك الإنسان مع المرأة سواها ويقول[5] .

متى تشرك مع امرأة سواها   فقد أخطأت فى الرأى التريك
فلو يرجى مع الشركاء خير   لما كان الإله بلا شريك

---

(١) المنتظم لابن الجوزى ص ١٢٦ أ ، ١٤٦ أ . وقد اشتهرت بين النساء بعلم الحديث كريمة بنت أحمد المروزى بمكة وقد قرأ عليها الخطيبُ البغدادى صحيحَ البخارى فى خمسة أيام (الإرشاد لياقوت ج ١ ص ٢٤٧) .

(٢) الأحكام السلطانية للماوردى ص ١٠٧ — ١٠٨ .

(٣) مقامات الهمذانى ص ١٠٣ من طبعة بيروت .

(٤) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٣٥٢ .

(٥) Kremer ZDMG, 38, s. 509 .

أما الكبراء فلم يكن عندهم تعدد الزوجات إلا من طريق اتخاذ الجوارى للاستمتاع بهن ، وخلفاء القرن الرابع كلهم أمهاتهم جوار صقلبيات ، ولذلك فإنهم لم يكونوا يتزوجون غير المملوكات إلا نادراً ، ونظراً لغلبة المملوكات على الخلفاء سميت زوجة الخليفة — إن كان له زوجة — بالحرة[١] . وقد بين الجاحظ العلة التى من أجلها صار أكثر الإماء أحظى عند الرجال من أكثر المهيرات بأن الرجل قبل أن يملك الأمة قد تأمل كل شىء فيها وعرفه ما خلا حظوة الخلوة ، فأقبل على ابتياعها بعد وقوعها فى نفسه ؛ أما الحرة فإنما يستشار فى جمالها النساء ، والنساء لا يبصرن من جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهن قليلا ولا كثيراً ، والرجال بالنساء أبصر ، وإنما تعرف المرأة من المرأة ظاهر الصفة ، فأما الخصائص التى تقع من نفوس الرجال فلا تعرفها[٢] .

أما زواج الأرامل فقد أجازته الشريعة ، ولكن العرف سخطه سخطاً شديداً ، ويحكى أنه فى عهد الخليفة المعتصم فى أوائل القرن الثالث الهجرى ، امتحن رجلٌ كاتباً فسأله عن صديق تزوجت أمُّه هل تُكتب إليه تهنئة أم تعزية ، فقال هو إلى التعزية أقرب ؛ فقيل له فكيف تعزيه ، فقال لا أجد إلى ذلك سبيلا ، وأخيراً قال يُكتب له : « إن الأقدار تجرى بخلاف محابّ المخلوقين ، وسِترٌ فى عافية خير من شماتة فى أهلها ، والله يختار للعباد ، نخار لك الله فى قبضها إليه ، فإن القبور أكرم الأ[illegible] »[٣] وكذلك كتب الخوارزمى (المتوفى عام ٣٩٣ هـ — ١٠٠٣ م) إلى ابن مسكويه المؤرخ بعد أن

---

(١) المنتظم ص ١٢١ أ .

(٢) كتاب الفصول للجاحظ مخطوط رقم ٣١٣٨ بالمتحف البريطانى بلندن ص ٦١ أ .

(٣) المحاسن والمساوئ للبيهقى ص ٤٤٩ ؛ وجمهرة الإسلام للشيزرى مخطوط ليدن رقم ٢٨٧ ص ٢٠٠ ب .

تزوجت أمه : « وقد كنتُ أسأل الله أن يبارك لك فى حياتها ، والآن أسأله أن يعجّل بوفاتها ، فإن القبر أكرم صهر ، وإن الموت أستر ستر ، ولا تذهب نفسك حسراتٍ على ما سبقك عليه الدهر ... والحمد لله الذى كان العقوق من جهتها ، ووقوع الجفاء من جنبتها ، فإنك بَرَرْتَها صغيراً ، وبلغت مرادها كبيرا ، فاجتمع لك بِرّان ، ووقع لك على الله أجران »(١) .

وكان ميلاد البنت دائماً مناسبة للتهنئة الحقيقية ، وقد كتب الشريف الرضى إلى أخيه مهنئاً بمولودة :

الآن جاءت خيولُ السعد راكضة تجرى بيوم مضىء الوجه مجدود
بمولد صقل الآباء حليته فطوّق المجدُ أعناق المواليد
مولودةٌ تهب الراءون بهجتَها لثما وعانَقْتَها فى ثوب محسود(٢)

على أن الخوارزمى كتب معزّيا لرجل عن فقد ابنته ، وهو يختم كتابه داعياً لأبيها أن يعوضه الله عنها «أخاً لها سوىّ الخلق والخلق شريف الفعل والعرق»(٣) .

ولم يكن انفصالُ النساء عن الرجال فى الحياة الاجتماعية هو وحده السبب فيما يُلاحظ فى كلام أم الجنوب من فحش ننفر منه ؛ فإننا لو قارنا قِصَصَ العرب فى عصرهم الأول ونوادرهم وكلامهم وشعرهم بما فى القرنين الثالث والرابع للهجرة لأدهشنا ما نجده فى هذين القرنين من ميل شديد إلى الإفحاش فى القول . وليس هذا أيضاً — شأنه شأن غيره — إلا من أثر سيطرة العادات الشرقية غير العربية التى كانت قبل الإسلام ، سيطرةً عادت لها من جديد ؛ ولا يزال البدوى إلى اليوم أعف وأطهر من غيره(٤) . وتسيطرت على شعر الهجاء بنوع خاص الألفاظُ

(١) رسائل الخوارزمى طبعة القسطنطينية ص ١٧٣ .
(٢) ديوان الشريف الرضى ج ١ ص ٢٤٥ . (٣) رسائل الخوارزمى ص ٦١ .
(٤) Landberg, Proverbes arabes, XVI. ، وانظر الفصل الخاص بالأدب فى الجزء الأول من هذا الكتاب (عند الكلام عن الشعراء الماجنين) .

البذيئةُ الفاحشةُ ، ولو نظرنا إلى الأشعار القديمة التى جمعها أبو تمام فى ديوان ا سة وأشعار البحترى — الذى كان يعتبر من أتباع طريقة القدماء — لوجدناها شد عفة وطهارة . أما ابن المعتز ، وهو الأمير العباسى الشاعر ، المتوفى عام ٢٦٩هـ — ٩٠٩م فإنه أجاب على حبيب له فى ظهر كتابه ، وهو يبيّن سبب ذلك فيقول :

وأجبت فى ظهر الكتاب إذا أتى ليلوط خطى فى الكتاب بخطه[١]

وفى القرن التالى زاد الفحش حتى يحكى عن الوزير سليمان بن الحسن حوالى عام ٣١٩هـ — ٩٣١م أنه أظهر « من سخف الكلام وضرب الأمثلة المضحكة وإظهار اللفظ القبيح بين يدى الخليفة ما يجل الوزراء عنه ، فاستنقصه الخلق ، وهجاه الشعراء ، واستعظموا الوزارة لمثله »[٢] . ولكن فى أواخر هذا القرن نجد ابن عباد الوزير الجليل المشهور بالصاحب يستعمل فى شعره أفحش الأوصاف[٣] وهو يبيّن رأيه فى أحد شعراء أهل عصره فى ثوب من الفحش[٤] . ولما ورد بغداد قصد دار الوزير المهلبى ، فلم يستطع استقباله لوقته بسبب شغل كان فيه ، فلما طال انتظار الصاحب كتب لأبى إسحاق الصابى رقعة فيها :

وأترك محجوبا على الباب كالخصى ويدخل غيرى كالأيور ويخرج[٥]

بل نجد أن الصابى هذا ، مع أنه مفخرة النثر العربى ، إذا هجا أتى بألفاظ فاحشة مقذعة من ألفاظ المقاذر والمجون[٦] . ونستطيع أن نصور لأنفسنا بعد هذا كيف يكون السخف والفحش فى كلام المجان الحقيقيين كابن الحجاج .

---

(١) ديوان ابن المعتز ج ١ ص ٨٢ . (٢) عريب بن سعيد القرطبى ص ١٦١ .
(٣) يتيمة الدهر ج ٣ ص ١٠٢ وما يليها .
(٤) نفس المصدر ج ٣ ص ١٢٩ — ١٣٠ ، حيث يقول ابن عباد فى أبى سعيد الرستمى مداعبا :

أبو سعيد فتى ظريف يبذل فى الظرف فوق وسعه
ينيك بالشعر كل ظبى فأيره فى عيال طبعه

(٥) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٣٢٨ . (٦) يتيمة الدهر ج ٢ ص ٦٣ — ٥ .

ويحكى أحد الشعراء كيف كان يغوى الصبيان فى الجامع الكبير بالبصرة ، وهو يبين كيف يمكن أن يستغوى من كان منهم مستعصيا فيقول[1] :

ألا يا جامع البصـــرة لا خرّبك الله
وسقى صحنَك الغيثُ من المزن فرواه
فكم من عاشق فيـــك يرى ما يتمناه
وكم ظبى من الإنـــس مليح فيك مرعاه
نصبنا الفخ بالعلـــم له فيك فصدناه

. . . . . .

وكم من طالب للشـ ـر بالشـــعر طلبناه
فما زالت يد الأيا م حتى لان متناه

. . . . . .

ولو كان من البعـــض بريًّا حين تلقاه
فرح بالدرهم الضر ب إليـه يتلقاه
فبالدرهم يستنزل ما بالجـو مأواه
وبالدرهم يستخر ج ما فى القفر مثواه

ويقول الهمذانى هاجيا :

لو كانت النيراتُ أخمصكا أو كنت ممن يساير الفلكا
ما كنت إلا مؤاجرا حَلِقا إذا رأى وجه دانق بركا[2]

وهـذا ينطبق على كثيرين من معاصريه ، ثم عادت إلى الظهور الأوضاع

---

(١) نفس المصدر ج ٢ ص ١٣٠ ؛ والإرشاد ج ٦ ص ٣١٧ — ٣١٨ .
(٢) ديوان الهمذانى مخطوط باريس رقم ٢١٤٧ ص ٥٩ ؛ وطبعة القاهرة سنة ١٣٢١ هـ — ١٩٠٣ م ص ٥ .

القديمة ، وأصبحت للمال قوة عظيمة ، حتى سحقت طاحونه الكبيرة كلَّ قيمة أخرى ، وكل شيء عُرِض من أجل المال ، وبلغت وصمة حب المال والمكر لتحصيله أعلى طبقات الشعب في الدولة . ويحكى أنه فى عام ٣٢١ هـ — ٩٣٣ م أمر الخليفة القاهر بتحريم الخمر والغناء وسائر الأنبذة ، وأمر ببيع الجوارى المغنيات على أنهن سواذج لا يعرفن الغناء ، ثم وضع من يشترى له كل حاذقة فى صنعة الغناء ، فاشترى منهن ما أراد بأرخص الأثمان . وكان القاهر مولعا بالغناء والسماع ، فجعل ذلك طريقا إلى تحصيل غرضه رخيصا[١] . وكذلك يحكى عن أمير مصر فى ذلك العهد حكايات طريفة ، فقد كان يأخذ أشياء الناس أخذ طماع لا يستحى ؛ حكى مزاحم بن رائق قال : استُعمل لى فَرْوٌ ، قام علىّ بستمائة درهم ، فمن حسنه وفرحى به لبسته بدمشق ، وركبت إلى الأخشـيد ، فلما رآه قلّبه واستحسنه ، وقال : ما رأيت مثله قط ، فلم تسمح نفسى بأن أنزعه للوقت ، فلما انصرفت اعترضنى فاتك ، وقال لى : اجلس فإن الأخشيد يريد أن يخلع عليك ، وجاءوا برزمة وقالوا : اخلع الفرو ، وطووه ، ومضوا به ، وبقيت جالسا . ثم قالوا : قد نام ، تعود إليه العشيّة ، فانصرفت إلى دارى ، وقلت : هاتوا الفرو ، فقالوا أيما فرو ؟ ما جاءنا شيء . فلما كان عشية دخلتُ على الأخشيد فإذا الفرو عليه ، فلما رآنى ضحك ، وقال : كيف رأيتَ ، ما أصفق وجهك ؛ ولكنك ابنُ أبيك ، وكم عرّضت لك ، وأنت لا تستحى ، فلم تفعل حتى أخذناه بلا شكر ولا منة[٢] . ويحكى أن محمد بن على المادرائى نزّه الأخشيد فى بستانه بنى وائل ، وفرش له ، وأكثر من الطعام والفواكه والطيب والفرش ، وقام بجميع العسكر ، فأكل ثم نام ، فلما استيقظ فُرش له عند البركة ونصبت بين يديه التماثيل من الذهب والفضة والكافور والعنبر ، وجُمع بين يديه المغنون من الرجال والنساء ، فطابت بذلك

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٠٤ .   (٢) المُغرب لابن سعيد ص ٣٤ .

نفسه ، ثم جعل بين يديه صينيتان من الفضة ، إحداها مملوءة بالدنانير والأخرى بالدراهم للنثار ، فأخذ صينية الدنانير وجعلها خلفه ونثر الدراهم ، فلما انصرف حمل جميع ما كان جالسا عليه وما كان بين يديه وما شرب وما أكل فيه فأرسل خلفه ، وحمل على فرسين بسرج ولجام من ذهب[١] .

وقد نشأ عن قلة شعور الإنسان بكرامة نفسه وشرفه قلة تقديره لكرامة الغير ؛ وفى سنة ٢٦٨ هـ — ٨٨٤ م خالف العباس بن أحمد بن طولون على أبيه ، وخرج عليه وهو بالشام ، وسار إلى برقة ، فسيّر إليه أبوه جيشا هزمه وقبض عليه وعلى من كان معه ، وأراد أن يعاقبهم ، فنصب دكة عظيمة رفيعة السمك ، وجلس فى علو يوازيها ، وشرع من ذلك العلو إليها طريقا ، ووقف العباس بين يدى أبيه فى خفتان ملحم وعمامة وخفّ ، وبيده سيف مشهور ، وكان أعوان العباس فى الثورة ومن حسن له الخروج على أبيه جالسين على الدكة ، فكان الواحد منهم يضرب بالسوط ثم يؤمر العباس بأن يقطع يديه ورجليه من خلاف ، ثم يلقى من الدكة إلى الأرض[٢] . ولما خُلع الوزير حامد بن العباس لم يزل ابن الفرات — وهو الذى خلفه على الوزارة — بالخليفة حتى سلّمه إليه ، فكان يصفع ويضرب . وكان المحسّن ، ابن الوزير الجديد ، يُخْرِجه إذا شرب ، « فيلبسه جلد قرد له ذنب ويقيم من يرقصه ويصفعه ، ويشرب على ذلك ، وأجرى على حامد أفاعيل قبيحة ليست من أفاعيل الناس ، ولا يستجيزها ذو دين ولا عقل »[٣] .

على أنه تروى عن النبى عليه السلام حكايةٌ تصور لنا مقدار شعور العربى بكرامته ، حكى ابن هشام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عدّل صفوف أصحابه

---

(١) نفس المصدر ص ٢٩ .

(٢) الإرشاد لياقوت ج ٢ ص ٤١٥ — ٤١٦ ؛ والكندى ص ٢٢٤ .

(٣) صريب ص ١١٢ .

يوم بدر ، وفى يده قِدْح يعدّل به القوم ، فمر بسواد بن غزية حليف بنى ع
ابن النجام ، وهو مستنتل (مستنصل) من الصف ، فطعن فى بطنه بالقدح
وقال : اسْتَو يا سواد ، فقال : يا رسول الله أوجعتنى ، وقد بعثك الله بالحق والعد
فأقدْنى ، قال : فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بطنه فقال : استَقِدْ
فاعتنقه سواد ، وقبّل بطنه[1] . هذا مثال لشعور العربى الأول بكرامته ؛ أما فى
القرن الرابع فقد كانت العقوبة البدنية لا تكاد تعتبر مزرية بالكرامة . ويحكى
عن الأمير معز الدولة أنه فى سنة ٣٤١ هـ ضرب وزيره أبا محمد المهلبى بالمقارع مائة
وخمسين مقرعة ، يراوح بينها بأن يرفع عنه الضرب حتى يوبخه ويبكته ثم يعيد
عليه الضرب ، ولكن هذا الوزير قَبِل بعد أن استقل من هذا الضرب أن يرجع
إلى الوزارة[2] . وقد تولى الوزارة بمصر فى القرن الخامس رجل كانت يداه قد
قطعتا بسبب الخيانة[3] ، وبلغ الحال إلى ما يشبه ما عند الزنوج ، حيث لا يتولى
أحدٌ قيادة القوافل إلا بعد أن تُمتَحَنَ مقدرتُه على احتمال الضرب بالسياط[4] .

وكان الثوار الذين يؤسرون وسلاحهم فى أيديهم يعاملون بحسب جرمهم وعلى
قدر ما أثاروه من سخط ورُعب . وكان الأسرى الأجانب يعاملون بغير معاملة
الخوارج من أهل البلاد ، ويحكى أن الأعراب الذين سبقوا الحجاج إلى مواضع
الماء فنزحوها وألقوا فيها الحنظل ، حتى بلغ العطش من الحجاج مبلغا كبيراً ،
وهلك منهم خمسة عشر ألفا ، عوقبوا بأن أُشْهِروا وحُبسوا ، وأُجيع منهم جماعة
وأُطعموا المالح ، ثم تُرِكوا على دجلة حتى ماتوا عطشا وحسرة ، وهم يشاهدون

(١) سيرة ابن هشام ص ٤٤٤ من طبعة جوتنجن سنة ١٨٥٨ .
(٢) مسكويه ج ٦ ص ١٩٠ .
(٣) Becker, Beiträge Zur Gesch. Aegyptens 1, 34 نقلا عن المسبّحى (المتوفى عام ٤٢٠ هـ) .
(٤) Vierkandt, Naturvölher, s. 264 .

الماء[١] . وفى عام ٢٨٩ هـ — ٩٠١ م قُبض على ابن أبى الفوارس القرمطى ، فقُلعت أضراسُه أولا ثم خلع بمدّ إحدى يديه ببكرة وتعليق صخرة فى الأخرى ، وترك على هـذه الحالة من نصف النهار إلى المغرب ، ثم قطعت يداه ورجلاه من غد ذلك اليوم ، وضُربت عنقه ، وصُلب[٢] . وفى عام ٢٩١ هـ — ٩٠٣ م قبض على « صاحب الشامة » وهو أحد قواد القرامطة القُساة ، وكان يذبح المسلمين كما تُذبح الأنعام ، وأُدخل هو وأصحابه بغداد . وقد عزم الخليفة على أن يُشهره حتى يراه الناس جميعا ، فأمر أن يُصلب على دقل ، والدقل على ظهر فيل ، وأمر بهدم طاقات الأبواب التى يجتاز بهـا الفيل ، ثم استسمج ذلك فأمر بعمل كرسىّ ، وركبه على ظهر الفيل فى ارتفاع ذراعين ونصف ، وأقعد فيه القرمطى ، وسار بين يديه الأسرى مقيدين على جمال ، وعليهم دراريع وبرانس من حرير ، وكان بينهم المطوق أحد أصحاب القرمطى ، وهو غلام لم تنبت لحيته ، وقد جعلت فى فمه خشبةٌ مخروطة ، وأُلجم بها فمه ، ثم شُدّت إلى قفاه كاللجام ، وذلك لأنه لما دخل الرقّة كان يشتم الناس إذا دعوا عليه ، ويبزق فى وجوههم ، فجعل ذلك فى فمه لئلا يتكلم . ثم أمر المكتفى ببناء دكة ارتفاعها عشرة أذرع ، وذُكر عن « صاحب الشامة » أنه أخذ وهو فى حبس المكتفى سكرجةً من المائدة التى كانت تدخل عليه ، فكسرها وقطع بشظية منهـا بعض عروقه فسال منه دم كثير ، فتُرك أياما بعد أن شُدت يده إلى أن رجعت إليه قوته ، ثم قُدِّم قواد القرامطة ، وقطعت أيديهم وأرجلهم ، وضُربت أعناقهم واحدا بعـد واحد ، وكانت ترمى جثثُهم وأعضاؤهم من أعلى الدكة إلى الأرض ، ثم قُدِّم « صاحب الشامة » ، فقطعت يداه ورجلاه ، وأُضرمت نار عظيمة وأُدخل فيها خشب صليب ، وكانت توضع الخشبة الموقدة فى خواصره وبطنه وهو يفتح عينيه ويغمضهما ، حتى خُشى

---

(١) المنتظم ص ١٥٩ ا . (٢) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢٢٠٦ .

عليه أن يموت ، فضُربت عنقه ، ورفع رأسه فى خشبة ، وكبّر من كان على الـ ـة ، وكبر سائر الناس فى أسفلها ، ثم ضُربت أعناق الأسرى ، فلما كان من الـ ـد حملت الرءوس إلى الجسر ، وصلب بدنُ القرمطى على الجسر الأعلى ببغداد[١] . وبعـد ذلك بقرن أى فى عام ٣٩٧ هـ — ١٠٠٧ م قبض الخليفةُ الحاكم بأمر الله على أبى ركوة ، وهو ثائر خرج على الحاكم واستفحل أمره حتى استولى على برقة وغيرها وكسر عسكر الحاكم وزعزع دولته ، « فأُركب جملا بسنامين وأُلبس طرطوراً ، وجعل خلفه قردٌ يصفعه معلّما بذلك ، والعساكر حوله ... ، وأمر به الحاكم أن يخرج إلى ظاهر القاهرة ، وتضرب عنقه ... فلما حمل إلى هناك أنزل فإذا به ميت »[٢] . وقد حكى المؤرخ النصرانى يحيى بن سعيد الذى كان يعيش بمصر فى ذلك العهد ، بدلا من هـذه القصة الطريفة ، أن أبا ركوة أحضر إلى مصر أسيراً ، فأُشهر بهـا ، ثم قُتل فى موضع يعرف بمسجد تبر ، وصلب فيه وأحرق بالنار[٣] .

هذه هى أقسى وأفظع العقوبات التى كانت الحكومة تعاقب بها أشد الثوار غلظة وأشدهم أذى ، وهم الذين كانوا يسفكون دماء الآلاف من الأبرياء ، وإذا عرفنا أن قطع اليد والرجل عقوبة قضت بها الشريعة الإسلامية من قبل ، ولا تزال إلى اليوم تستعمل مع الثوار فى مراكش ، ثم نظرنا بعد هذا فى قائمة العقوبات المروّعة التى كان يُلجأ إليها فى مثل هذه الأحوال فى أواخر العصور الوسطى الأوروبية ؛ لشعرنا بشىء من الراحة ، لأن القاهرة وبغداد لم تبلغا مبلغ أوروبا من حيث قسوة الحاكم المتسلّط وغلظته بمن يقع فى يده . وكان الثوار الذين

---

(١) عريب ص ٢ — ٥ .

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ١٤٤ ، وابن تغرى بردى طبعة (W. Popper) ص — ١٠٠ .

(٣) يحيى بن سعيد ص ١١٧ ب .

يؤخذون فى الأسر بين المسلمين يُشْهرون عادة فى المدن على بغال[١] أو أفيال[٢] أو على جمل ذى سنامين وهو الأحب[٣] . وكان هؤلاء الخوارج يُلبسون على أشكال متنوعة ، فأحياناً يُلبسون ثياباً خشنة كما حدث للحسين بن حمدان وابنه حينما عاد بهما مؤنس إلى بغداد ، فقد أُلبسا برانس طوالا من اللبود ، وقمصاناً من الشعر الأحمر[٤] ، وأحياناً أخرى يُلبسون درّاعة ديباج وبرنس خزّ طويل[٥] أو برنساً طويلا بشفاشج وجلاجل[٦] ، أو برنساً بأذناب الثعالب[٧] ، أو برنساً طويلا ملوناً كما يلبس النساء[٨] . وفى القرن الرابع كان يجمع بين الإشهار والصلب ، فكان الثائر يُشْهر على جمل عليه نِقْنِق وهو مصلوب[٩] . ولما أُشهر الحسين بن حمدان ببغداد عام ٣٠٣ هـ — ٩١٥ م صُيّر مصلوباً على نِقْنِق وتحته كرسى فوق جمل ، ويدير النِقْنِقَ رجلٌ ، فيدور الحسينُ من موقفه يميناً وشمالا ، وعليه دراعة ديباج سابغة قد غطت الرجل الذى يدير النقنق حتى لا يراه أحد من الناس[١٠] ولما ضعفت سلطة الخليفة وصار يشق عصا الطاعة عليه أمراء الأقاليم كان إذا هزمهم لم يُعتبروا خارجين ، بل محاربين ، وأصبحت هذه العقوبات لا تستعمل مع الأسرى المحاربين ، ففى عام ٣٠٧ هـ — ٩١٩ م هزم يوسف بن أبى الساج ، وكان قد خرج على الخليفة وأسس لنفسه مملكة فى شمال

---

(١) نفس المصدر ص ١٠٧ ب .

(٢) نفس المصدر ص ٩٤ أ ، وابن الأثير ج ٨ ص ٤٩ (؟) ، ومروج الذهب ج ٨ ص ١٦٩ .

(٣) عريب ص ٧٧ ، ٥٧ والمروج ، ج ٨ ص ١٦٩ ، ١٩٨ .

(٤) زبدة الفكرة مخطوط باريس ص ١٧٩ ب .

(٥) كما فُعِل بالقرمطى الخارج (مروج الذهب للمسعودى ج ٨ ص ١٦٩) ، ويوصيف الخادم (المروج ، ج ٨ ص ١٩٨) ، والحسين بن حمدان (عريب ص ٥٧) ، ويوسف بن أبى الساج (عريب ص ٧٧) .

(٦) عريب ص ٧٧ .

(٧) زبدة الفكرة ص ١٨٢ أ ، وابن الأثير ج ٨ ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .

(٨) مسكويه ج ٦ ص ٥٠١ (؟) .

(٩) مسكويه ج ٦ ص ١٧

(١٠) عريب ص ٥٧ .

غربى إيران ، فلما أُدخل بغداد وأُلبس برنساً طويلا بشفاشج وجلاجل وحمل على الفالج ، ساء الناسَ ذلك لأنه لم تكن له فعلة ذميمة فى كل من أسره أو ظفر به[١] ، ولما خرج ياقوتُ لمحاربة عماد الدولة بن بويه أخذ معه برانس لبود وعليها أذناب الثعالب ، وقيوداً وأغلالا ، وذلك ليجعلها على ابن بويه وأصحابه ويشهرهم بها فى البلاد ؛ ولكن ياقوتاً هُزم ، ووُجد ذلك معه ، فأشار أصحابُ ابن بويه عليه أن يفعل بياقوت وأصحابه مثلَ ذلك فامتنع ، وقال إنه بَغْىٌ ولؤمُ ظفر ، ولقد لقى ياقوت بَغْيَه ، ثم أحسن ابن بويه إلى الأسارى[٢] .

أما القسوة وإلحاق الأذى من جانب القاضى الذى يحقق فى مسألة — ولهذه القسوة فى تاريخنا صحائف طويلة مملوءة — فقد منعتها الشريعة الإسلامية ، وذلك بأن اعتبرت الإقرار الذى يُكْرَه عليه الإنسان بالأذى والتعذيب أو بمجرد صياح القاضى به إقراراً باطلا غير قانونى . أما صاحب الحرس فكان له أن يسأل من يحقق أمره ويؤذيه « ويضربه بالسوط والقلوس والمقارع والدرّة على ظهره وقفاه ورأسه وأسفل من رجليه وكعابه وعضله »[٣] . وكانت المقرعة تعتبر أقل إيذاء من السوط[٤] . وثَمّ ضروبٌ أخرى من التعذيب كان لا يأتيها إلا الذين يتولون مسائل الإدارة والخراج ، ليكرهوا الناس على إخراج المال . وكان التعذيب الذى اختصوا به أن يعلقوا من يُبْتَلَى بهم من يده أو رجله ، ويتركوه معلقاً حتى تنحل قوته[٥] . وأقسى عقوبة عند القاضى المسلم هى الرجم للشخص المُحْصَن إذا زنى ، وهى عقوبة كأنها لم تُفرض ؛ لأن الشريعة تحتم فى الإثبات

---

(١) نفس المصدر ص ٧٧ .
(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .
(٣) مروج الذهب للمسعودى ج ٨ ص ١٥٤ . (٤) كتاب الوزراء ص ١٠٢ .
(٥) انظر الفصل الخاص بالمسائل المالية فى الجزء الأول من هذا الكتاب ، وراجع كتاب الوزراء ص ٢٨١ ، وعريب ص ١٨٤ .

شروطا يكاد توفرها يكون مستحيلا . وكذلك جعلت عقوبةَ من أخذ وقطع الطريق وحارب أن تُقطَع يدُه ورجلُه ؛ فإن قَتَل قُتِل [١] . وعقاب السارق قطعُ اليد . ولما كان الاعتقاد أن الروح تعود للاتصال بالبدن بعد الموت فإن التمثيل ببدن المعاقب كان يُعتبر ضرباً من تشديد العقوبة ، فكان يصلب فى كثير من الأحيان مع مدّ الذراعين وكان يُحرَس بالليل وتوقد أمامه النيران [٢] . ولم يحدث قط فى ذلك العصر أن صُلب أحدٌ وهو حى إلى أن مات ، ويحكى فى بعض الكتب أن الحلاج الذى قُتل عام ٣٠٩ هـ — ٩٢١ م لانتحاله مذهباً اعتبره البعض خروجاً عن الدين صُلب حيا إلى أن مات [٣] . ولكن الصحيح هو أنه صُلب فى أول دعوته ، ثم اعتقل ، ولكن ذلك وقع قبل قتله بثمان سنين حين ضرب بالسياط ، وقد ذكر ابن المعتز [٤] من الفظائع المنكرة التى فعلها السودان فى القتل ببغداد « الصلب قبل الموت » . وكانت أشد عقوبة هى إحراق الجثة ، وهذه الدرجة العليا فى إتلاف المعاقَب ظهرتْ أيضاً فى مظهر آخر وهو أنه لا تدفع للمحروق دِية [٥] . وفى سنة ٣١٢ هـ — ٩٢٤ م قُبض على أعجمى وُجد فى دار الخلافة ، وظُنّ به أنه كان يريد أن يفتك بالمقتدر ، « فضُرب وعُنِّف فلم يقرّ بخبره ، وعوقب حتى تلف ، ثم صُلب ، ولُفّ

(١) كتاب الخراج لأبى يوسف ص ١٠٨ .

(٢) وقع هذا لابن بقيّة الوزير لما قُتل وصلب عام ٣٦٧ هـ كما تدل على ذلك قصيدة الأبارى فى نديم الأديب لأحمد سعيد البغدادى نقلا عن كتاب عيون السير للهمذانى .

(٣) الأصطخرى ص ١٤٩ ، ٢١٠ . (٤) ديوان ابن المعتز ج ١ ص ١٢٩ .

(٥) هذا هو الحال اليوم ، وكذلك كان قديما . انظر مثلا ما اشترطه أبو بكر على وفد المرتدين لما قَدِم عليه ، وهو أنه « خيّرهم بين الحرب المجلية ، أو السلم المخزية ، فقالوا : قد عرفنا الحرب المجلية ، فما السلم المخزية ؟ قال : أن نخرج منكم الحلقة والكراع ، ونغنم ما أصبنا منكم ، وتَدُوا قتلانا ، ويكون قتلاكم فى النار » . وكان فؤاد المسلمين فى ذلك العصر يحرقون المرتدين حقيقة (انظر فتوح البلدان للبلاذرى طبعة ليدن ١٨٦٦ ص ٩٥ ، ٩٨ . وكذلك كان إلقاء الدية عند اليونان مرتبطا بظهور عادة إحراق الأجساد عندهم .

عليه حبل من قنب ومشاقة ، ولُطِّخ بالنفط ، وضرب بالنار »[١] . وفى سنة ٣٩٢هـ — ١٠٠١ م سُمِل أحدُ العمال المكروهين فمات ، فبعد أن دُفن نبشه أهلُ البلد وأحرقوه لسوء معاملته لهم ، ولما قدّم من القبيح إليهم[٢] . ولا أعلم أن أحداً من المسلمين فى ذلك العصر أُحرق وهو حىّ قط[٣] . ولا نسمع عن السلخ إلا عند الفاطميين ، بإفريقية ؛ ففى سنة ٣٤١هـ — ٩٥٢م أُسر أحد الثوار بعد أن كان قد أفسد المغرب وقطع فى بسكرة وحدها ثلاثمائة ألف نخلة ، فسُلخ من جلده وهو حىّ وحُشِىَ بالتبْن وصُلب[٤] . وأسر أحد الثوار ، فجرح نفسه وهو فى سجنه ، فمرض حتى مات وكان قد أتعب جوهراً فاتح مصر فسُلخ بعد موته وحشى جلده تِبْناً وصُلب بين مصر والقاهرة[٥] . ويحكى عن أبى بكر النابلسى الزاهد أنه قال فى حق الفاطميين : إذا كان مع الرجل المسلم عشرةُ أسهم وجب عليه أن يرمى فى الروم سهماً واحداً وفى الفاطميين تسعة ، فأخبره المعز لدين الله ، وقال له : بلغنا عنك كيت وكيت ، فقال : ما قلت هذا ، فظن المعز أنه رجع عن قوله ، وسأله عما قال ، فأجاب : قلتُ : إذا كان معه عشرة وجب أن يرميكم بتسعة ويرمى العاشر فيكم أيضاً ؛ فإنكم غيّرتم الملّة وقتلتم الصالحين ، وادعيتم نور الإلهية ، وكان المعزُّ بطّاشاً ، فشهره وضربه بالسياط ثم أمر بسلخه ، فتولى ذلك رجلٌ يهودى ، وكان أبو بكر يقرأ القرآن ولا يتأوّه ، فداخلت اليهودىَّ رحمةٌ له ؛ فطعنه بالسكين فى فؤاده ليموت عاجلا[٦] . وهذه حكاية تخالف ما نعرفه

---

(١) مسكويه ج ٥ ص ٢٠٨ . (٢) كتاب الوزراء ص ٤٧١ .

(٣) على أنه يذكر حكاية واحدة فيها أن الخليفة المتضد حرق شيلمة الكاتب حيّا — الإرشاد لياقوت ج ٦ ص ٤٩٤ وما بعدها .

(٤) كتاب العيون ج ٤ ص ٢٥٣ ب — ٢٥٤ أ .

(٥) يحيى بن سعيد ص ١٠٠ أ ، والمقريزى ج ٢ ص ٤١٣ .

(٦) المنتظم لابن الجوزى ص ١١١ أ .

من خصال المعز . وكذلك يحكي المقريزي عن مصر حكاية كالسابقة لا نكاد نصدقها ، وهي أنه في عهد الملك الناصر كان يعذّب البعض بأن توضع الجمار بن على رأسه ، وتُغطّى بقماش أحمر ، فلا تمضي ساعة حتى تخرق رأسه وتصل إلى دماغه فيموت[١] . ويحكي عن الخليفة المجنون الحاكم بأمر الله أنه لما عنّ له إظهارُ الزهد غرّق بعض حظاياه وأمهات أولاده ، وذلك بأن وُضِعْن في صناديق ، وسمِّرت عليهن ، وثُقّلتْ بالحجارة وأُلقيت في النيل[٢] . على أن مؤرخي النصارى بنوع خاص اخترعوا كثيراً من الحكايات القاسية ونسبوها للحاكم لتقوية إيمان النصارى ، فاتهموه مثلا بأنه عذّب أورستيس بطريرك بيت المقدس تعذيباً شديداً وقتله ، والكنيسة تحتفل باستشهاد أورستيس في شهر مايو ، ولكن يحيى بن سعيد المؤرخ النصراني الذي كان معاصرا لهذا البطريرك يؤكد ثلاث مرات أنه مات في القسطنطينية[٣] .

ولم تكن المنازعات التي تقوم عند تنصيب الخليفة تنتهي من غير ارتكاب بعض الفظائع ، وربما كان الباعث الأكبر على الفظائع دون القتل تهيب الناس بدافع الدين من إراقة دم الخليفة[٤] . ولكن هذه الفظائع قليلة متفرقة ، هذا إلى أن خيال العامة أضاف كثيراً إلى الأخبار القديمة . وفي عام ٢٥٥ هـ — ٨٦٩ م خُلع الخليفة المعتز ، ويقول المسعودي الذي ولد بعد هذا التاريخ بقليل إن أصحاب السير والتواريخ تباينوا في مقتله ، فمنهم من ذكر أن المعتزّ مات في حبسه في خلافة

---

(١) الخطط للمقريزي ج ١ ص ٤٢٦ (؟) ولم أجد ما يقابل هذا الكلام (المترجم) .
(٢) يحيى بن سعيد ص ١٢٣ ب .
(٣) Schlumberger, Epopée byzantine, II, 808.
(٤) هذا التهيب كان سببا في فظائع ليس لها ضرورة فيما نرى . يحكي الرحالة ماركوپولو (Marco Polo II 5) أن خان الأكبر لفّ نيانًا في بساط ، وما زال يُحمل ويُرى حتى مات .

المهتدى بالله حتف أنفه ؛ ومنهم من ذكر أنه منع فى حبسه من الطعام والشراب فمات عند قطع مواد الغذاء عنه ، ومنهم من رأى أنه حقن بالماء الحار المغلى فمن أجل ذلك وُجد جوفه وارما حين أُخرج للناس ، والأشهر بين من عُنى بأخبار العباسيين أنه أُكره على دخول حمام مُحمّى ومُنع الخروج منه ، ثم تنازع هؤلاء فمنهم من قال إنه ترك فى الحمام حتى فاضت نفسه ، ومنهم من قال إنه أُخرج بعد أن كاد يتلف ، وسُقى ماء مقرورا بالثلج فنثر كبده وأمعاءه فحمد من فوره[1] . أما أبو الفداء ، وهو مؤرخ متأخر فيقول إنهم أدخلوه سرداباً فحصروه عليه فمات[2] . وقد اختلف أيضاً فى قتل المهتدى الذى ولى الخلافة بعد المعتز : فقيل إنه قتل خنقا ؛ وقيل كبس عليه بالبساط والوسائد حتى مات ؛ ومن المؤرخين من رأى أنه جعل بين لوحين عظيمين ، وشد بالحبال إلى أن مات ؛ وقيل إنه أعصرت مذاكيره إلى أن مات ؛ والأشهر عند المسعودى أنه قتل بالخناجر[3] . وكذلك يحكى ابن الأثير وهو مؤرخ متأخر أن ابن المعتز ، وهو الخليفة الذى قتل عام ٢٩٦ هـ — ٩٠٩ م ، عصرت خصيتاه حتى مات[4] . أما المصادر القديمة فلا تعرف شيئا عن قتله .

وفى القرن الرابع الهجرى ظهرت عادة سَمل الخلفاء للحيلولة دون تبوئهم منصب الخلافة ، وذلك احتذاء لعادة الروم البوزنطيين من قبل . وكان أول من ذاق هذا العذاب بين خلفاء الإسلام الخليفة القاهر حينما أُرسل إليه القضاة والشهود ليقرّ على نفسه بالخلع ، فأبى أن يُحل الناس من بيعته ، وذلك فى عام ٣٢٢ هـ — ٩٣٤ م[5] . واستُدعى أحمد بن أبى الحسن الصابى فكحله بمسمار

(١) مروج الذهب ج ٨ ص ٣ — ٤ .
(٢) تاريخ أبى الفدا تحت عام ٢٥٥ هـ ، ج ٢ ص ٢٢٤ من الطبعة الأوروبية .
(٣) المسعودى ج ٨ ص ١١ . (٤) ابن الأثير ج ٨ ص ١٣ .
(٥) يحيى بن سعيد ص ٨٦ ا ؛ مسكويه ج ٥ ص ٤٥٥ — ٤٥٦ ، وابن الأثير ج ٨ ص ٢١١ .

يُحمى دفعتين[١] . وكان المتقى ثانى من سمل عام ٣٣٣ هـ — ٩٤٤ م ، وذلك بأمر توزون رئيس الحرس التركى ؛ فلما صاح المتقى صاح معه النساء والخدم ، فأراد توزون أن يخفى الصراخ ، فأمر بضرب الدبادب[٢] . ثم صار هذا الصنيع محبوبا جدا عند البويهيين حوالى عام ٤٠٠ هـ وهو يُذكر فى تاريخهم . على أن الخليفة قبض فى عام ٣٥٧ — ٩٦٧ م على ثائر خطر من بنى العباس فاكتفى بأن جدع أنفه . وكذلك فعل السلطان عضد الدولة بن بويه عام ٣٦٦ هـ — ٩٧٦ م بأبى الفتح بن العميد وزير أبيه[٣] ، وهذا تعلمه المسلمون أيضا من الرومان البوزنطيين .

أما القتل شنقا فلم يكن متبعا ، ولا أعلم إلا مثالا واحدا يشبه ذلك ، وهو أن أحد الوزراء عُلّق بأن عُمل فى قلبه كلاّبين ، فلم يزل يضطرب حتى مات[٤] .

وأما القتل بالسمّ فلم يكن له الدور الذى ننتظره لهذه الطريقة التى استعملت مئات السنين ؛ ولم يصلنا من ذلك إلا أمثلة قليلة ، والذى يعرف ما للخيال من حظ فى مثل ذلك فى الشرق اليوم ، يجب عليه أن يسقط نصفه ، ومن أمثلة ذلك أن أحد مؤرخى ذلك العهد يخمن فى مقتل الوزير حامد بن العباس — وكان قد جاوز الثمانين — أنه مات ببيض مسموم[٥] ؛ ثم جاء بعض المؤرخين المتأخرين فذكر أنه سم فى بيض مشوى أحدث له إسهالا أماته ، معتبراً ذلك حقيقة واقعة[٦] ، هذا على حين أن صاحب كتاب العيون والحدائق ، وهو يعتمد على أقدم المصادر ، يقرر أنه مات من ضرب لحقه[٧] . بل يُقال فى حكايات من أقدم حكايات السمّ وقعت فى عهد

---

(١) كتاب العيون ص ١٤٣ أ .

(٢) المسعودى ج ٨ ص ٣٥٠ ، Elias Nisib. 212 نقلا عن ثابت بن سنان .

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٣١ ، ٤٩٧ ؛ والإرشاد لياقوت ج ٥ ص ٣٤٩ .

(٤) طبقات السبكى ج ٣ ص ٢٩٥ .

(٥) أمدروز (Amedroz) فى كتاب الوزراء للصابى ص ١٩ .

(٦) زبدة الفكرة ص ١٩٣ ب . (٧) كتاب العيون ص ١٠٨ أ .

الخليفة الهادى (١٦٩ — ١٧٠ هـ = ٧٨٥ — ٧٨٦ م) : « وقيل غير ذلك »[١] ، وقد ذكر المسعودى ، وهو من مؤرخى ذلك العهد ، ما قيل فى وفاة المعتضد : « وقيل مات بسم إسماعيل بن بلبل قبل قتله ، فكان يسرى فى جسده ، ومنهم من ذكر أن جسمه تحلّل فى مسيره فى طلب وصيف الخادم ... ومنهم من رأى أن بعض جواريه سمته فى منديل أعطته إياه يتنشف به ، وقيل غير ذلك مما عنه أعرضنا »[٢] .

على أن طريقة السم كان أكثر استعمالها فى تاريخ البيوت الحاكمة ببخارى بالنسبة لغيرهم ، كما بين ذلك ميرخُند ، وهو من المؤرخين المتأخرين . على أننا لو قارنا ما حكاه بما عندنا من الأخبار القديمة مقارنة دقيقة لتبين لنا أن مقادير السم نقصت نقصا كبيراً .

وكان من بين الحكام القساة قليلى الرحمة فى ذلك العصر المعتضد والقاهر ، ويحكى من تعذيب الأول منهما أنه كان يأخذ الرجل ، فيأمر بتكتيفه وتقييده ، ثم يأمر بأن تحشى أذناه وخيشومه وفمه بالقطن ، وتوضع المنافخ فى دبره ، فإذا صار كالزّق المنفوخ وورم سائر أعضائه وبرزت عيناه سُدّ دبره ، وضُرب فى عرقين فوق الحاجبين ، فعند ذلك يخرج منهما الريح والدم ، ولهما صوت وصفير حتى يخمد ويتلف[٣] . أما فظائع القاهر فكانت مناسبة لطبيعته السيئة ، فيُحكى عنه أنه أمر بطرح إسحاق بن إسماعيل وأبى السرايا نصر بن أحمد فى بئر حَيَّيْن مقيّدين ، وتضرع أحدهما ، وسأله العفو ، فلم يلتفت إليه ، وتعلق بسعف نخلة كانت قريبة من البئر فأمر القاهر بضرب يديه ، ودَفْعِه فى البئر إلى جانب صاحبه . ثم أمر بطمّ البئر بالتراب حتى امتلأ ، وهو واقف[٤] . ولما ظفر بمؤنس اعتقله هو وعلى

---

(١) مروج الذهب للمسعودى ج ٦ ص ٢٦٦ . (٢) نفس المصدر ج ٨ ص ٢١١
(٣) نفس المصدر ج ٨ ص ١١٦ ، ١٦٠ . (٤) مسكويه ج ٥ ص ٤٤٦ — ٤٤٧ .

ابن يلبق وابنه ، ثم ذُبح عليٌّ بحضرته ، وحُمل رأسُه إلى أبيه ، ثم ذُبح يلبق ، وحُمل رأسه ورأس ابنه إلى مؤنس ، فلما رآهما لعن قاتلهما ، فأمر القاهر به فجُر برجله إلى البالوعة وذُبح كما تُذبح الشاة ، والقاهر يراه . ثم أخرجت الرؤوس الثلاثة فى ثلاث طسات إلى الميدان حتى شاهدها الناس ، وطيف برأس على ابن يلبق فى جانبى بغداد ، ثم رُدّ إلى دار السلطان وجعل مع سائر الرءوس فى خزانة الرءوس[١] . ويحكى ابن الأثير وحده أن الجند ندموا على مساعدة القاهر فى هذه الفعلة الشنيعة[٢] . وكان القاهر أيضاً هو الخليفة الوحيد الذى قتل رجلا — وهو أمير عباسى كان يطلب الملك — بأن أمر به أن يُقام فى فتح باب ويُسد عليه بالجص والآجر ، وهو حىّ[٣] . وكذلك قتل السلطانُ عضد الدولة المتوفى عام ٣٧٢ هـ — ٩٨٢ م أحد الوزراء مع صاحب له ، لأنهما عملا ضده ؛ فأمر بطرحهما إلى الفيلة ، وأُضريت عليهما ، فقتلتهما شر قتلة[٤] . وهذا هو المثال الوحيد من نوعه فى ذلك العصر .

أما الانتحار فلم يبلغنا منه إلا مثالان فى ذلك العصر ، إذا صرفنا النظر عمن حاولوا قتل أنفسهم ، وهم معتقلون ينتظرون العقوبات الشنيعة . فيحكى عن أبى أحمد ابن أبى بكر الكاتب ، وكان ابن أحد وزراء بنى سامان وشاعراً هجّاء ، أنه فقد الرياسة والمال حتى قاسى من ذلك قذاة عينه وغصة صدره ، فانتهى أمره بأن شرب السم فمات[٥] . والثانى هو ابن غسان الطبيب ، وكان فتى مليحا ظريفاً

---

(١) نفس المصدر ح ٥ ص ٤٢٣ نقلا عن ثابت بن سنان .

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ١٩٤ .

(٣) مسكويه ج ٥ ص ٤٢١ ، والمنتظم لابن الجوزى ق ٤٥ أ ، وزبدة الفكرة ص ٢٢٥ ب ، وابن الأثير ج ٨ ص ١٩٣ .

(٤) مسكويه ج ٦ ص ٤٨١ ، ٥١٧ . وكان عضد الدولة أول من استعمل الفيول فى القتال (مسكويه ج ٦ ص ٤٦٤) .

(٥) وكان يكثر من إنشاد بيتى المنصور الفقيه (يتيمة ج ٤ ص ٢ — ٧) : =

حسن الأدب ، غرّق نفسه فى كلواذى ، لأسباب اجتمعت عليه ، منها عشق حرق قلبه على غلام الآمدى الحلاوى ، وكان نصرانيا[١] .

ويحكى عن الخليفة عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى عماله حوالى عام ١٠٠ هـ — ٧٠٠ م بألا يُغَلَّ مسجون[٢] . وفى عهد هارون الرشيد رأى الفقهاء أن أهل الدعارة والفسق والتلصّص إذا أُخذوا فى شىء من الجنايات وحبسوا ، فلا بد أن يُجرى عليهم من الصدقات أو من بيت المال ما يقوتهم ، ويُجرى على كل منهم عشرة دراهم فى الشهر ، تُعطى له فى يده دَفْعاً لظلم السجان لهم أو حرمانه إياهم من طعامهم وشرابهم ، ولا بد أن يكسوا فى الشتاء قميصاً وكساء ؛ وفى الصيف قميصاً وإزاراً ومقنعة ، وذلك إغناء لهم عن الخروج فى السلاسل لطلب الصدقة[٣] وقد جعل فى ميزانية المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ — ٨٩٢ — ٩٠٢ م) ألف وخمسمائة دينار فى الشهر لنفقات السجون وثمن أقوات المحبوسين وملبسهم وسائر مؤنهم[٤] ، وكثيراً ما نجد الأخبار بأن المسجونين كانوا يشتغلون بعمل التكك ، وهى لا تزال إلى اليوم أجمل ما يصنع ببغداد ، يقول ابن المعتز[٥] :

تعلمت فى السجن نسج التكك ... وكنت امرأ قبل حبسى ملك
وقُيدتُ بعد ركوب الجياد ... وما ذاك إلا بدور الفلك

= قد قلت إذ مدحوا الحياة فأسرفوا ... فى الموت ألف فضيلة لا تعرف
منها أمانُ لقائه بلقائه ... وفراق كل معاشر لا ينصف

وقال فى معناها :

من كان يرجو أن يعيش فإننى ... أصبحت أرجو أن أموت فأعتقا
فى الموت ألف فضيلة لو أنها ... عرفت لكان سبيله أن يعشقا

(١) حكاية أبى القاسم طبعة متز ص ٨٣ .
(٢) كتاب العيون والحدائق ج ٣ طبعة دى غوى سنة ١٨٦٩ ص ٦٣ .
(٣) كتاب الخراج لأبى يوسف ص ٨٨ . (٤) كتاب الوزراء ص ٢١ .
(٥) المحاسن والمساوئ للبيهقى ص ٥٧١ من الطبعة الأوروبية . وهذان البيتان ليسا فى ديوان ابن المعتز .

وفى أوائل القرن الرابع الهجرى عيّن الوزير لمن فى السجون أطباء أفردوا لذلك ؛ فكانوا يدخلون إليهم فى كل يوم ، ويحملون معهم الأدوية والأشربة[١] أما فى مصر على عهد الفاطميين فكانت السجون تُضَمَّن ، وكانت أحب شىء إلى من يضمن أمور الحكومة ، وكانوا يتزايدون فى ضمانها لكثرة ما يتحصل منها . وكان يؤخذ من كل من يسجن ستة دراهم بمجرد دخوله السجن ، ولو لم يُقم به إلا لحظة[٢] .

أما الزكاة عند المسلمين فقد جعلت لها الشريعة حداً أدنى هو نصف العشر من الثروة لا من الدخل ، وذلك فى كل سنة[٣] . وقد نقل لنا الكثير من أخبار الزهاد وغير الزهاد التى تدل على سموهم فى الشعور بالصدقات . ويحكى عن أبى عبد الله بن أبى ذهل الضبى الهروى المتوفى عام ٣٧٨ هـ — ٩٨٨ م أنه كانت تضرب له الدنانير ، وزن الدينار منها مثقالٌ ونصف أو أكثر ، فيتصدق بها ، ويقول : « إنى لأفرح إذا ناولتُ فقيراً كاغداً فيتوهم أنه فضة ، فإذا فتحه ورأى صفرته فرح ، ثم إذا وزنه فزاد على المثقال فرح أيضاً » ، وكانت لهذا الرجل غلة كثيرة لا يدخل داره إلا دون عشرها ، والباقى يفرقه على المستورين وسائر المستحقين[٤] . ويحكى عن دعلج بن أحمد بن دعلج أبى محمد السجزى وكان تاجراً غنيا وعالماً (توفى عام ٣٥١ هـ — ٩٦٢ م) ، أنه بعث بالمسند إلى ابن عقدة لينظر فيه ، وجعل فى الأجزاء بين كل ورقتين ديناراً[٥] . ويحكى عن أحد التجار المشهورين بكثرة المال ببغداد أنه أرسل لابن سمعون الواعظ خمسمائة

---

(١) أخبار الحكماء للقفطى ص ١٩٣ من الطبعة الأوروبية .

(٢) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٨٩ .

(٣) كشف المحجوب للجويرى ص ٤٠٦ من الأصل الفارسى ، ٣١٥ من الترجمة الإنجليزية

(٤) المنتظم ص ١٢٨ ا وطبقات السبكى ج ٢ ص ١٦٥ .

(٥) طبقات السبكى ج ٢ ص ٢٢٢ .

خشكنانكة فى كل منها دينار[١] . ويحكى عن جحظة الشاعر المتوفى عام ٣٢٤ هـ — ٩٣٦ م أنه وقع فى ضيق شديد حتى صار بيته أفرغ من فؤاد أم موسى ، نعرف حالَه أحدُ العمال المتقاعدين نزاره ؛ وأحضر له من بيته فرشاً وقماشاً وكلَّ ما يحتاج إليه البيت من آلات ومؤونة ، وجلس عنده طول يومه ؛ (وفى اليوم التالى أرسل إليه كيساً فيه ألفا درهم ورزمة ثياب من فاخر الثياب . ولما أراد الخروج قام جحظة ليخرج معه فقال له : إحفظ بابك فكل ما فى دارك لك)[٢] ، وكان لأحد الكتاب أمٌّ صالحة ، تعوّدته منذ وُلد أن تجعل تحت رأسه عند نومه فى كل ليلة رغيفاً فيه رطل ، فإذا كان الصباح تصدقت به ، فظل ابنها يفعل ذلك طول حياته[٣] . وكان فى بلاد كرمان نخيل كثير ، وكان لأهلها سنة حسنة ، فكانوا « لا يرفعون من تمورهم ما أسقطته الريح ، فيأخذه غير أربابه ، وربما كثرت الرياح فيصير إلى الضعفاء والمساكين من التمور فى التقاطهم أكثر مما يصير إلى أربابه »[٤] .

وكان العشاق يظهرون فى تهاديهم بالهدايا الصغيرة كثيراً من دقة الذوق وسموّه ، فمثلا كان لا يستحب إهداء ليمونة للحبيب لأنها طيبة فى ظاهرها ولكن باطنها حامض ، وفى ذلك صفة غير محمودة ، وفى كثير من الأحيان ترسل المحبوبة تفاحة عليها أثر عضتها لها ؛ يقول ابن المعتز :

وآثار وصل فى هواك حفظتها تحيات ريحان وعضات تفاح
وكتب لطاف ... بها المسك أدرجت على وصف أحزان وتعذيب أرواح

ويقول :

جاء الرسول مبشرا بزيارة من بعد طول تهجّر وتغضّب

---

(١) المنتظم ص ١٤٢ ب .
(٢) نفس المصدر ص ٦٠ ب .
(٣) كتاب الوزراء ص ٦٤ .
(٤) ابن حوقل ص ٢٢٤ .

وبكفه تفاحة قد مسّكت   آثار عضتها كقرنى عقرب[١]

وكان ذلك من عادات الرومان أيضا[٢] . وكان الشاعر أحيانا يطرز منديلا غالى الثمن بأبيات شعرية ويرسلها لحبيبته[٣] .

ولما كان النبي عليه السلام يتيما ، صار المسلمون يعطفون على اليتامى عطفا خاصا وإن لم يجمعوا فى بيوت أُعِدّتْ لهم ، ففى أصفهان مثلا كان أحد الصالحين يذهب بالأيتام يوم الجمعة إلى منزله ، ويدهن رءوسهم[٤] .

أما بناء المستشفيات فكان مسألة دنيوية بحتة ، ولم يكن الصالحون يحبون أن يعرفوا شيئا عن معالجات الأطباء ، واسم دور المرضى بيمارستانات ، وهو فارسى معرب لا أصل له فى لغة القرآن ، وأول من بنى داراً للمرضى فى الإسلام الوليد ابن عبد الملك[٥] ، وهو أقل الخلفاء تدينا ؛ ثم جاء البرامكة ، وكانوا بعيدين عن الإيمان كل البعد ، فأسسوا بيمارستانا أسندوا رياسته لطبيب هندى[٦] . ويحكى عن طاهر بن الحسين أنه كتب إلى ابنه عبد الله : « وانصب لمرضى المسلمين دورا توويهم ، وقوّاما يرفقون بهم ؛ وأطباء يعالجون أسقامهم »[٧] . وبنى أحمد بن طولون عام ٢٥٩هـ — ٨٧٣م أول مارستان كبير بمصر ؛ وكان به حمامان ، أحدهما للرجال ، والثانى للنساء ، وشرط فى هذا المارستان ألا يُعالج فيه جندى ولا مملوك ؛ وإذا جاء العليل أن تُنزع ثيابه ونفقته ، وتوضع عند أمين المارستان ، ثم يُلبس ثياباً ، ويفرش له ، ويعالج حتى يبرأ ، فإذا أكل فرّوجاً ورغيفاً أمر بالانصراف ، وأُعطى ماله وثيابه . وكان ابن طولون يركب بنفسه فى كل يوم

---

(١) ديوان ابن المعتز ج ١ ص ٦٨ ، ٧٣ .
(٢) V. Gleichen-Russwurm, Elegantiae, S. 277.
(٣) كتاب الديارات ص١١٧ ا . (٤) ذكر أخبار أصفهان مخطوط ليدن ص١٦١ ا .
(٥) الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٤٠٥ (٦) الفهرست ص ٢٤٥ .
(٧) كتاب بغداد لطيفور ص ٥٠ .

جمعة ليتفقد المارستان والمرضى[١] . وكذا جعل فى المسجد خزانة شراب فيها جميع الأدوية والأشربة وطبيب يجلس يوم الجمعة للعلاج[٢] . وكان فى المارستان قسم للمجانين ، على حين أنه كان ببغداد مارستان كبير خاص بالمجانين ، وهو دير هِزِقل القديم الذى كان يقع على مرحلة إلى الجنوب فى طريق واسط[٣] . وكان أهم ما يلزم لمثل هذا المارستان السلاسل والسياط ، كما كان الحال عندنا منذ بضع عشرات من السنين[٤] . وفى عهد الخليفة المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ = ٨٩٢ — ٩٠٢ م) ببغداد كانت نفقات البيمارستان الصاعدى وأرزاق المتطببين والمآنين والكحالين ، ومن يخدم المغلوبين على عقولهم ، والبوابين والخبازين وغيرهم ، وأثمان الطعام والأدوية والأشربة ؛ أربعمائة وخمسين ديناراً فى الشهر[٥] . ثم زادت المارستانات فى بغداد زيادة كبيرة ، وفى سنة ٣٠٤ هـ كانت خمسةً تقلّدها طبيبٌ غيرُ مسلم وهو سنان بن ثابت[٦] ، وبفضل هذا الطبيب الكبير وإشارته فُتح ببغداد عام ٣٠٦ هـ — ٩١٨ م مارستانان آخران كبيران ، أحدهما اتخذه الخليفة نفسه ، وسُمّى المارستان المقتدرى ، وكان يقع فى باب الشام ، والثانى بيمارستان السيدة أم المقتدر اتخذه لها سنان بسوق يحيى على نهر دجلة ورتب له المتطببين ، وكانت النفقة على بيمارستان الخليفة من ماله الخاص . وبلغت مائتى دينار فى كل شهر . أما نفقة مارستان السيدة فكانت ستمائة دينار فى كل شهر[٧] . وفى عام ٣١١ هـ

(١) الخطط للمقريزى ج ٢ ص ٤٠٩ وقد سخر أحد الشعراء بمارستان ابن طولون بقوله (الكندى ص ٢١٧) :

فيا ليت مارستانه نيط باسته وما فيه من علج عتل مقلّل

(٢) الخطط ج ٢ ص ٢٦٧ (٣) جغرافية اليعقوبى ص ٣٢١ ، والعقد الفريد ج ٣ ص ٢٤٠ (٤) كتاب الأغانى ج ١٨ ص ٣٠ (٥) كتاب الوزراء ص ٢١ .

(٦) المنتظم ص ١٤ أ وهذا مصدر جيد لأنه يعتمد على تاريخ ثابت بن سنان نفسه ، وأقدم مارستان ببغداد هو الصاعدى عند باب المحوّل (المنتظم ص ٦٦) .

(٧) أخبار الحكماء للقفطى ص ١٩٤ — ١٩٥ ، وعيون الأنباء لابن أبى أصيبعة ج ١ ص ٢٢٠ وما بعدها ، والمنتظم ص ١٦ أ ، وتاريخ أبى المحاسن ج ٢ ص ٢٠٣ .

— ٩٢٣ م أسس الوزير ابن الفرات أيضاً مارستاناً ببغداد ، وأنفق عليه من ماله مائتى دينار فى كل شهر[١] .

ولما استولى بجكم على بغداد أكرم سنانا وعظّمه غاية التعظيم ، فأشار سنان عليه أن يتخذ فى عام ٣٢٩ هـ — ٩٤١ م مارستانا ثالثاً[٢] فوق ربوة جميلة على الشاطئ الغربى لدجلة ، كانت تحمل قصر هارون الرشيد من قبل ، وظل هذا المارستان زماناً طويلا حتى جدده عضُد الدولة عام ٣٦٨ هـ — ٩٧٨ م ، وافتتحه عام ٣٧١ هـ — ٩٨١ م ، وزوده بالأطباء والمعالجين والخُزّان والبوابين والوكلاء والناطورين[٣] . وكذلك أسس معز الدولة فى عام ٣٥٥ هـ — ٩٦٦ م مارستاناً آخر عند الجسر الذى على دجلة ، ووقف عليه أوقافاً وضياعاً يرتفع منها خمسة آلاف دينار[٤] . هذا إلى أنه كان بالمدن الكبرى فى الولايات مثل شيراز وأصفهان وواسط مستشفياتها الخاصة[٥] .

ويحكى أنه فى ٣١٩ هـ — ٩٣١ م اتصل بالمقتدر أن رجلا من الأطباء غلط فى معالجة رجل فمات ، فأمر مُحتَسِبَه أبا بطيحة بمنع جميع الأطباء من المعالجة إلا من امتحنه سنانُ بن ثابت ، وكتب له رقعه بما يطلق له التصرُّفُ فيه من صناعة الطب ، وأمر سناناً بامتحان الأطباء ، وأحصى الأطباء فى جانبى بغداد لامتحانهم فكانوا ثمانمائة ونيفا وستين رجلا سوى من استغنى عن امتحانه لاشتهاره بالتقدم فى الصناعة وسوى من كان فى خدمة السلطان . وكان إذا جاء الرجل إلى سنان

---

(١) المنتظم ص ٢٣ ب .

(٢) أخبار الحكماء للقفطى ص ١٩١ — ١٩٣ (٣) المنتظم ص ٦٨ أ ، وابن الأثير ج ٩ ص ١٢ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٨٥ . (٤) المنتظم ص ٩٨ ب .

(٥) المقدسى ص ٤٣٠ ، والمنتظم ص ٦٩ أ ويحكى عن بجكم أنه بنى فى واسط وقت المجاعة دار ضيافة للضعفاء والساكين (المنتظم ص ٦٨ أ ، ب ، والقفطى ص ١٩٢) ولم يصح بمدينة واسط مستشفى حقيق إلا فى عام ٤١٣ هـ (المنتظم ص ١٧٠ ب) .

ليمتحنه بدأ بإجلاسه ، ثم قال له : « قد اشتهيت أن أسمع من الشيخ شيئاً أحفظه عنه وأن يذكر شيخه فى الصناعة [١] » . ولم يصلنا قط فى أخبار هذا القرن أن أحد الأطباء كان يعتبر مسئولا عن حياة مريضه . بحيث يقتل إن مات بين يديه ، وفى عام ٣٢٤ هـ — ٩٣٥ م توفى هارون بن المقتدر أخو الخليفة المطيع لله فحزن عليه واغتم ، واكتفى بنفى الطبيب بختيشوع بن يحيى ، لأنه اتهم بتعمد الخطأ فى علاجه [٢] .

---

(١) أخبار الحكماء للقفطى ص ١٩١ .

(٢) تاريخ أبى المحاسن ج ٢ ص ٢٧٧ من طبعة ليدن .